دورية تصدر كل شهرين
www.hiragate.com
مجلة علمية ثقافية أدبية
السنة الثانية عشرة
شوال ١٤٣٨هـ / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٧م
61
Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | July - August 2017

سارع!

احمل مطافيك كلها وسارع.. حريق حريق!
سارع ولا تبطئ وإلا عمَّ في الدنيا الحريق!
سارع.. فالريح هائجة تنفخ النيران
تُضْرِم ألسنةَ اللهيب!
سارع.. فصمت الموت
يَثْوي في الضمائر والنفوس!

***

٢ فرسان الوجد في هذا الزمان-١ **فتح الله كولن**
٤٤ أزمة القيم في عصر الإعلام **د. محمد جكيب**
٦١ أديب الدباغ مداد مثمر **د. ناصر أحمد سنه**

أديب الأحزان

ببالـغ الحـزن والأسـى تودّع حـراء المفكـرَ والكاتب الكبيـر "أديـب إبراهيم الدباغ" إلى جـوار ربه في ٣١ مايو ٢٠١٧. تودعـه بدمـوع حـرّى وقلـوب مكلومـة. فالكاتب عمـود المجـلات وعقلهـا المحـرك وروحهـا النابـض. وكذلك كان الأستاذ أديب؛ لقد كان واحدًا من أسرة حراء منـذ عددهـا الأول، يغذيها بروحه ويمدها بأفكاره ويبعث فيها الحياة بمقالاته المتميزة. وقراء حراء يعرفون الأديب الأريب رحمه الله جيدًا، فهم يقرأون له منذ ستين عددًا.

لقـد رحـل أديبنـا إلـى جـوار ربـه فـي ظـروف أليمـة مريـرة بالنسـبة لمجلـة حـراء وأسـرة حـراء والمتعاطفين مـع رؤيـة حـراء في تركيـا والعالـم العربي والإسـلامي. وإننا نعتبر فقيدنا الراحل من شهداء المحنة التي تعيشها حراء ورائدها الكبير الأستاذ فتح الله كولن بدءًا من عام ٢٠١٣ حتـى اليـوم. فنسـأل الله تعالى أن يتغمده بواسـع رحمته ويسكنه الفردوس الأعلى.

فمن هو الأستاذ أديب الدباغ؟ ما سيرته الفكرية؟ كيف كان يرى العالم؟ في هذا العدد تقرؤون حوارًا سبق أن أجراه نـوزاد صـواش مـع الفقيد قبل عـام، وكذلك تجدون مقالاً للدكتـور ناصر سـنه عنه -رحمـه الله- بعنوان "أديب الدباغ مداد مثمر". بالتأكيد لن تنقطـع حراء عن نشـر تراث أديبنا الكبيـر، فهـو يعيـش معنا من خلال أفكاره الحية، فالموت قـد يغيّـب بدنه مـن بيننا، أما أفكاره فهـي خالدة لا تموت.

فـي المقـال الرئيس من هذا العدد يعود الأسـتاذ فتح الله كولن لينقش بإلحاح ملامح الإنسان المؤهل لإخراج الأمـة -وكذا البشـرية- من أزماتـه المؤلمة، فيراهن على الإنسـان والإنسـان فقـط حيث يقـول: "لا ينجـز الأفكار العظيمـة والغايات السـامية والمشـاريع العالمية الكبرى إلا عشّـاق متيّمـون فاضـت صدورهـم بأشـواق أخروية غامـرة، وتمرّسـوا التحليـق فـي الأعالـي دومًـا وبنَفَـس طويـل، وغـذوا السـير فـي الـدرب دون أدنـى تخفيـف لسرعتهم، ورابطوا في مواقعهم بثبات لا يعرف الفتور".

أمـا الدكتـور عبـد الإلـه بن مصبـاح فيطـرح موضوع "كرويـة الأرض بيـن معطيـات العلـم وإشـارات القرآن" طرحًـا عميقًـا ويطلعنا على مقاربـات جديدة. وفي مقاله "كيـف نصنـع الإنسـان المنتج؟" يتطـرق العالم والمفكر مـن السـنغال الدكتـور طاهـر فـال إلـى مفهـوم الإنتـاج، وأسباب ضمور الإنتاجية في عالمنا الإسلامي، وشروط الإنتاجية المنشودة. أما الأستاذ عز الدين عناية فيتحدث في مقاله "المثقف العربي في الغرب" عن أهم المشاكل التـي تواجه المثقـف العربي الذي يعيش في ديار الغرب والـدور الـذي يمكن أن يلعبه في بناء ذاتنا الحضارية في الغـرب، وفي تحقيـق الاندماج المطلوب هناك، وكذلك فـي تجسـير الهوة بيـن العالمين الغربي والإسـلامي. أما الدكتـور إدريـس مقبول فيطرح موضوعًا طريفًا في مقاله "السـنة النبوية وعلم المسـتقبل"، ويجيب على تساؤلات عديدة من قبيل: هل رسمت لنا السنة النبوية معالم واضحة قـراءة المسـتقبل؟ هل يمكـن أن نخرج من السـنة النبوية علما يمكننا من استشراف المستقبل؟ والدكتور العطري بن عزوز يلفت أنظارها إلى تصنيف العلوم والإشكالات التـي تتمخـض عن الفشـل فـي هذا التصنيـف، وينبه إلى ضـرورة تصنيـف العلـوم وفـق المعرفـة المتكاملـة. وفي مقـال "أزمـة القيم في عصر الإعلام" ينبه الدكتور محمد جكيـب إلـى أهميـة القيـم في وسـائل الإعـلام وضرورة تفعيلهـا فـي تلك الوسـائل حتـى تقوم بدورهـا الإيجابي المطلـوب منهـا. بالإضافـة إلـى مقـالات أخـرى شـيقة ومفيـدة تجدونهـا في صفحـات حراء. وبـالله التوفيق. ■

المحتويات

فرسان الوجد في هذا الزمان–١ / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
المستمتعون بالوحل / حراء (ألوان وظلال)	٥
كروية الأرض بين معطيات العلم وإشارات القرآن / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٦
المثقف العربي في الغرب / عز الدين عناية (ثقافة وفن)	١٠
حفظ الدين وجودًا وعدمًا / أمينة مزيغة (قضايا فكرية)	١٤
كيف نصنع الإنسان المنتج؟ / د. طاهر فال (تربية)	١٨
البيروني.. مؤرخ الأديان المتخصص / يوسف الشاطر (تاريخ وحضارة)	٢١
ما المقصود بالوعي السنني؟ / عبد العزيز الإدريسي (قضايا فكرية)	٢٥
أمهليني / آسية شرفي (أدب)	٢٧
السنّة النبوية وعلم المستقبل / د. إدريس مقبول (قضايا فكرية)	٢٨
يا رب / خالد بن إدريس برادة (شعر)	٣٢
قنديل البحر يكشف عن أسراره / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٣٣
الاجتهاد الفقهي في حماية البيئة.. الهواء نموذجًا / مصطفى البعزاوي (قضايا فكرية)	٣٧
صناعة الطفل المبدع / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	٤١
حقيقة الزمن / حراء (ألوان وظلال)	٤٣
أزمة القيم في عصر الإعلام / د. محمد جكيب (قضايا فكرية)	٤٤
تصنيف العلوم من منظور التكامل المعرفي / د. العطري بن عزوز (قضايا فكرية)	٤٨
طائر يبحث عن الحقيقة / فلة محمد داود (أدب)	٥٢
اليتيم الكسير / حراء (ألوان وظلال)	٥٤
مشروع الخدمة حقيقة واقعية وليس نظرية خيالية / نوزاد صواش (حوارات)	٥٥
أديب الدباغ مداد مثمر / د. ناصر أحمد سنه (أدب)	٦١

فرسان الوجد
في هذا الزمان-١

لا ينجز الأفكار العظيمة والغايات السامية والمشاريع العالمية الكبرى إلا عُشّاق مُتيَّمون، فاضت صدورهم بأشواق أخروية غامرة، وتَمرَّسوا التحليق في الأعالي دومًا وبنَفَس طويل، وغَذّوا السير في الدرب دون أدني تخفيف لسرعتهم، ورابطوا في مواقعهم بثبات لا يعرف الفتور.

إننا اليوم لسنا بحاجة إلى هذا أو ذاك، نحن بحاجة إلى أبطال يجيدون التفكير بهذا المستوى الراقي، يفيضون إيمانًا ويقينًا، يُنزِلون أفكارهم إلى الواقع، يُخرِجون أمتهم أولاً، ثم البشرية كلها من الظلمات إلى النور، فيهدونها إلى الحق سبحانه.. إننا بحاجة إلى أرواح نذرت نفسها للحقيقة.

أجل، إننا بحاجة إلى أرواح تفكر فيما يجب التفكير فيه، وتعرف كل ما ينبغي معرفتُه، تُحوّل ما عرفته إلى واقع فورًا، وتحثّ الخطى بعزم لكي تُعِدّ جميع الأرواح الميتة لبعث جديد وكأنها إسرافيل قد التقم الصورَ بفيه.. أجل، بحاجة إلى أرواح تجوب الأرجاء كلها تنفخ الحياة في جميع النفوس، صدّاحة بمواجيد روحها ليل نهار، مترنّمة بمشاعرها الوجدانية في كل سانحة وبكل وسيلة، فإن كانت تملك قدرة بيان فبيانها، وإن كانت تجيد استخدام القلم فبلسان قلمها، وإن كانت منفتحة على علوم الجمال فبزخارف إحدى الفنون الجميلة وخطوطها، وإن كانت شاعرة فبسحر شعرها، وإن كانت موسيقية فبألحانها الأخاذة ونغماتها الآسرة.. أجل، إننا بحاجة إلى أرواح اتصل لسانُها بأعماق قلبها، وخفق قلبها بإخلاص وتفانٍ للحقيقة العظمى.

وإذا أردنا أن نقيّم هؤلاء الأبطال انطلاقًا من النماذج التي نشاهدها في مسرح الواقع اليوم، نجد أنهم ينظمون رحلات إلى أرجاء العالم كلها وكأنهم ذاهبون إلى الحج، يتوّجون رحلاتهم بروح "الهجرة"؛ يهمسون في وجدان كل من يمرون به معاني رفيعة من لسان الحال وبيان القلب، ويتمتمون بألحان المودة حيثما يحلّون، ويوقظون شعور المحبة فيمن يلتقون، يُقبِلون على القلوب يقيمون فيها عروشًا من الحب.

بهم تحيا الأرواح الظامئة إلى الحب، وإليهم تنصت القلوب التي بُعثت من جديد. إن السعداء الذين شدوا رحال الهجرة مفعمين بهذه المشاعر، وكذلك الذين فتحوا لهم قلوبهم، بعيدون كل البعد عن كل ما يمتّ إلى الدنيا بصلة، فهُمُ الإخلاص والإخلاص فقط. فلا مكان للمصلحة الذاتية قطعًا بين من يبلّغ ومن ينصت إليه، وبين من يقدم المعنى الكامن في جوهره ومن يتلقاه، وبين من يحمل كأس الحياة ومن يجمع شمله ويستعيد وعيه، وبين من يقدم المعونة ومن يستقبلها، إنما هي ابتغاء مرضاة الله ولا شيء غير مرضاة الله تربطهما. إن هذه العلاقة العميقة المنبعثة من صميم الوجدان، تستند على القيم الإنسانية العالمية كليًّا، وتنبع من التوقير المشترك لهذه القيم السامية.

إننا في الحقبة القريبة من ماضينا، نسينا بالكامل

إن الكرة الأرضية اليوم حامل بربيع جديد، فرحة جَذْلى بولادة مباركة قريبة نتيجة البذور التي نثرها فرسان الوجد الأخيار في كل أطرافها. البشرية كلها مبتهجة نشوى ببشائر حملتها نسائم إرهاصات هذه الولادة المرتقبة.

أن لنا جذورًا روحية محكمة نرتبط بها، وأننا أقمنا حضارات زاهرة عديدة على مدار التاريخ، وبدونا لمن ينظر إلينا كأننا أمة لا ماضي لها. والأنكى من ذلك أن شعورًا بالنقص أصابنا، فأنكرنا ذاتنا وأنكرنا ماضينا دفعة واحدة، بل بات بعضنا يخجل من هويته الوطنية.

ابتعدنا عن ذاتنا يومًا بعد يوم حتى صرنا أسرى لقيم أجنبية. فوا حسرتاه على أمة كانت في ماضيها المجيد تفكر وتناقش وتعبّر عن رؤاها الذاتية وتنقش عقيدتها وقيمها الجمالية على معالمها التي شيّدتها في كل مكان مرت به، فخلّدت ذكراها الجميلة على صفحات التاريخ.. وا حزناه على أمة تهاوت من قمم المجد والشهرة والازدهار إلى حضيض النسيان والمجهول والحرمان من كل أنواع التوقير والتبجيل!

لم تكن هذه الأمة تستحق هذا المصير الحزين، ولم يكن لهذا المصير المشؤوم أن يستمر إلى الأبد. كيف، وقد حوّلت هذه الأمة حُفَر الموت إلى مسالك انبعاث خمسين مرة حتى اليوم، واستبدلت أوضاعًا سيئة تبدو هلاكًا وانقراضًا إلى وسائل للتجدد ألف مرة، وأبدت كفاءة خارقة في كل وقت -رغم ممانعة أصحاب المنافع من "رجال الأبدان"، وإخوان المصالح ممن يلهثون وراء المتعة اليومية، وجماعات الإنكار ممن يهينون قيمنا الوطنية والدينية تعصبًا وكفرًا- فأنشأت مناهج وأساليب جديدة للسير نحو المستقبل المضيء قُدمًا، واستوت على قَدميها عقب كل هزة واستأنفت سيرها من جديد، ونجحت في الإبحار بأفكارها ومشاعرها ورسالتها إلى جميع أنحاء العالم.

إن فرسان النبل والشهامة هؤلاء قد نأوا بأنفسهم عن بريق الشهرة ووهج الجاه، وأغلقوا أبوابهم أمام كافة ألوان التفاخر والتباهي، وسموا بجناحي التواضع

hiragate.com

إننا نؤمن يقينًا بأن وجه العالم كله سيتغير بألوانه وزخارفه يومًا بفضل الجهود التي يبذلها فرسان الوجد الأبطال الذين تشع قلوبهم محبة، والذين نذروا أنفسهم لإقامة صرح القيم الإنسانية، وتلتقط البشرية أنفاس الطمأنينة والسلام.

والانمحاء، وتزيّوا برداء الأمن والصدق والوفاء، وصمدوا أمام رغبات النفس وأهوائها صمود الأبطال، وصاروا حواريي تعريفِ العالم بقيمنا الدينية والوطنية مشحونين بوعي تاريخي ورثوه عن آبائهم، وهتفوا هتاف الأوائل قائلين "سلكنا دروب الحب، لا نبتغي شرفًا هناك ولا غرورًا" فاختاروا التعب على الراحة وسجّلوا أحد أهم إنجازات هذا القرن.

إن الورود التي بدأت تزدهر في كافة أنحاء العالم اليوم، استمدت ألوانها من ذوي الوجوه القمرية هؤلاء ومن المعاني التي يحملونها في وجدانهم؛ وبدأت الجغرافيا الاجتماعية على مستوى العالم تنتسج وفق منسوجاتهم الفكرية انتساج قماش مطرّز بديع، والبشرية كلها تترنم بألحانهم الأصيلة التي لا تَهرَم ولا تبلى. إن مشاعرهم الطاهرة وأفكارهم النقية تلك قد تبدو لدى الناظر إلى بداياتها قطرات صغيرة، ولكن من يدرك روح الموضوع ومعناه، يعلم أنها تتضمن بحارًا واسعة تموج بهِبات جميلة ومفاجآت شتى في كل حين.

إن فرسان النور هؤلاء عملوا على إضاءة ما حولهم فقط في حقبة معينة وفقًا لطبيعة الأشياء. أما الآن فقد أطلقوا قواهم الحقيقية الكامنة وطاقاتهم الروحية، وغدوا فرحة وبسمة وأملاً ومحبة، وانهمروا على كل مكان انهمار السحب المثقلة بالغيث، واندفعوا بحماس متّقد يحوّلون قلوبًا قاحلة ظامئة للحب والتسامح إلى جنات فردوسية.

إن الكرة الأرضية اليوم -من أولها حتى آخرها- حامل بربيع جديد، فرحة جَذْلى بولادة مباركة قريبة نتيجة البذور التي نثرها هؤلاء الأخيار في كل أطرافها. البشرية كلها مبتهجة نشوى ببشائر حملتها نسائم إرهاصات هذه الولادة المرتقبة. المعنى الذي ينبض في القلوب واحد، وإن اختلفت الأصوات والنغمات، والنسمات التي تهب في ساعات السَّحر تحمل إلى أيوب خريرًا عذبًا من نهر ماء الحياة، وإلى يعقوب رائحة إبراهيمية من ثوب يوسف.

إن هذا يعني عودتنا إلى مسرح التاريخ مرة أخرى، وإقبالَنا نحو موقعنا الحقيقي من جديد، كما يعني رسالة انبعاث بديلة للإنسانية جمعاء. علمًا بأن الأمم التي كانت -ولا زالت- تضطرب وتئن في دوامة من أزمات مختلفة، كانت تترقب هبوب نسمات كهذه تحمل بشائر الأمل إليها. طوبى لأهل السعد من الأبطال الذين يتولون الريادة في هذا البعث فيحركون تلك النسمات! طوبى لمن فتحوا قلوبهم لنفحات البعث تلك مترقبين وصولها!

إننا نؤمن يقينًا بأن وجه العالم كله سيتغير بألوانه وزخارفه يومًا بفضل الجهود التي يبذلها أولئك الأبطال الذين تشع قلوبهم محبة، والذين نذروا أنفسهم لإقامة صرح القيم الإنسانية، وتلتقط البشرية أنفاس الطمأنينة والسلام. ومن يدري، لعل الفكر الإنساني في عالم المستقبل يتوهج معهم سطوعًا وإشراقًا للمرة الأخيرة، وتجد الآمال الإنسانية طريقها إلى الواقع، وتتحقق جُلّ أحلامنا بهم رغم أنف ما رُسم في كتب اليوتوبيا من مثاليات. أجل، سيتحقق هذا يومًا لا محالة، وعندما يحلّ الموسمُ، سوف يجثو ذوو القلوب الخاوية والحظوظ النكدة على ركبهم بين يدي تلك الأرواح المشرقة، يطلبون العفو منهم والغفران، نادمين على ما أجرموا، ساكبين الدمع على ما اقترفوا. ولكن هيهات أن يتداركوا الفرص التي أضاعوها. ليت تلك الأرواح الغليظة المتسربلة بمشاعر خسيسة وأفكار متمردة وتصرفات رعناء خشنة، رجعوا إلى أنفسهم؛ وقفوا عند الحق، وقدّروا المعروف، وتحلّوا بالإنصاف قبل أن يحلّ اليوم الذي يتقلبون فيه بعذاب الضمير دون أن يجدوا لأنفسهم مخرجًا ولا حيلة.. ليتهم أنصفوا بعض الشيء ولم يدمّروا مستقبلهم.

هؤلاء الأبطال الأسطوريون تشبَّعوا بروح الإيثار والتضحية والفداء التي امتاز بها الصحب الكرام، يحثّون الخطى دومًا ليصلوا بالنور إلى كل ركن من أركان

العالـم، يكبحـون جمـاح أنفسـهم فـي حـب الاسـتمتاع بملـذات الحيـاة، ممتلئين بمشـاعر البـذل والعطاء لمنح الحيـاة للآخريـن. وإذ يفعلون ذلك لا تلمـح أثرًا للفخر أو العجـب فـي سـلوكهم، بـل تفيـض أطوارهـم تواضعًا وانمحـاء؛ يضربـون أمثلـة فـي النبـل والشـهامة قـلّ فـي التاريخ نظيرها، بما يُبدونه من حماس لا يخمد، وإقدام لا يعرف التراجـع، وأشواق لا تخبو، واندفاع خارق في خدمة الإنسـانية، رغم كل أسـباب التثبيـط التي تعوقهم؛ يهمسـون فـي وجـدان كل من يمـرون به ألحانًـا من بيان قلوبهم؛ يغرسون فسائل في كل مكان فيحولونه إلى جنات زاهـرة؛ يشـرحون أفكارهم ويرسـمون أحلامهـم ويبثّون همومهـم بحيويّـة عجيبـة وسـرعة باهـرة وجهـد منقطع النظيـر، ويهتفون بالنـاس أن "حيّ على الخلود"، بقلوب ملؤهـا إيمـان وعـزم وتصميـم وأمـل بالمسـتقبل عظيـم.

قـد يبـدو الطريـق الـذي يسـلكونه عصيًّا متمـردًا، بيد أنهـم يعرفـون ذلك منذ البداية. أجل، يعرفون أن الطريق سـيتوعر يومًـا ويسـتعصي على السـير وتنهار الجسـور. يعلمـون أن غيلانًـا سـتظهر لهـم وتعتـرض طريقهـم فـي بعـض المنعطفـات، وأعاصيـر مـن الحقـد والكراهيـة والعداء سـتثور حولهم. إن إيمانهم بصحة الطريق الذي يسـلكونه راسـخ لا يتزعـزع، لكنهـم لـم ينسـوا أبـدًا أن عقبـات لا تخطـر على البال سـوف تفاجئهـم. لذا نظروا إلـى مـا ألـمّ بهـم مـن ابتـلاءات وما قد يلـمّ بهـم لاحقًا؛ علـى أنهـا مـن سـنن سـبيل الحـق ومحنـه الخاصـة، فلم يفقـدوا شـيئًا مـن حماسـهم، بل ظلوا يسـعون في دربهم لا يلـوون علـى شـيء؛ وإذا مـا اعتراهم شـيء مـن القلق أقبلـوا علـى الله مستسـلمين، واعتصموا بحصـن الإيمان الحصيـن، وحاولـوا قراءة العصر الذي يعيشـون فيه، وما يحوم حولهم من أحداث قراءة صحيحة، وتابعوا السير -وسـيتابعون- نحـو "أفـق الرضى" واثقيـن بوعد الله لهم بالسداد والتوفيق. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٨٤ (سبتمبر ٢٠٠٢)، أصل عنوان المقال باللغة التركية: (Günümüzün Karasevdalıları)، الجزء الثامن من سلسلة "الجيل والعصر". الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

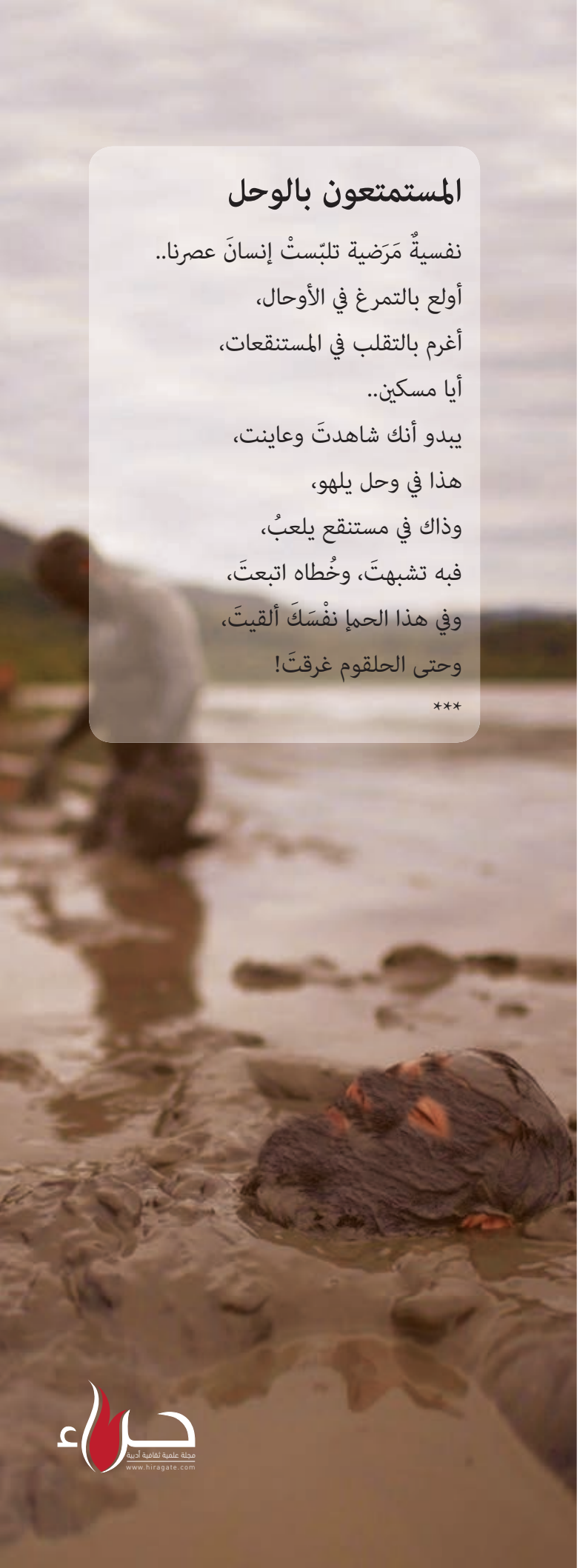

المستمتعون بالوحل

نفسيةٌ مَرَضية تلبّستْ إنسانَ عصرنا..
أولع بالتمرغ في الأوحال،
أغرم بالتقلب في المستنقعات،
أيا مسكين..
يبدو أنك شاهدتَ وعاينت،
هذا في وحل يلهو،
وذاك في مستنقع يلعبُ،
فبه تشبهتَ، وخُطاه اتبعتَ،
وفي هذا الحمإ نفْسَكَ ألقيتَ،
وحتى الحلقوم غرقتَ!
***

د. عبد الإله بن مصباح*

كروية الأرض
بين معطيات العلم وإشارات القرآن

من المستغرب له أن تُصبح تُتداول في مواقع التواصل الاجتماعي أفكار تنسف حقيقة كروية الأرض وتروِّج لفكرة "الأرض المسطحة"، وهي أفكار تقوم على منطق النقد لواقع علمي ثابت بفكر تصوري معارض غالبًا ما تجده يفتقر إلى السند العلمي المبني على المنطق الاستدلالي. من أجل ذلك ارتأيتُ أن أقدم هذا المقال الذي أحاول من خلاله رفع اللبس عن هذه الحقيقة ببيان أوجه التوافق بين ما جاء به القرآن الكريم من إشارات إلى كروية الأرض، وما تجليه لنا الكشوفات العلمية الحديثة من تفاصيل حول مغزى دلالاتها العلمية.

فالقرآن الكريم هو كتاب هداية، جاء يستنهض في الإنسان همة العقل من أجل العلم بخبايا هذا الكون، لكنه ليس دليلاً علميًّا يشمل الإجابة المفصلة عن كل الأسئلة المطروحة حول ظواهر الكون؛ فهو بحمله الإشارة إلى مثل هذه الحقيقة الكونية (حقيقة كروية الأرض) يكون دفع بنا إلى البحث في خبايا ما تكتنزه الظاهرة من أسرار، حتى يطلع الباحث على المعنى الذي يريده الله ﷻ من هذا الكون لا المعنى الذي يريده الإنسان. فكون أنه سلك بنا مسالك العلم، فذلك يعني أنه فتح لنا من أجل ذلك باب الفهم، ولو أنه بيّن لنا تفاصيل هذه الحقيقة مسطرة في آي الكتاب وجاهزة للفهم والاستيعاب، لكان سد لنا باب العقل وفتح لنا باب النقل، وهو ما لا يتفق مع دعواته المتكررة إلى البحث والاستكشاف التي كثيرًا ما عرضها علينا في صيغ ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾،

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾.. تلك الصيغ التي جاءت تستنهض في الإنسان همة البحث العلمي الذي هو المدخل لفهم مثل هذه الحقائق، والأساس في فهم حقيقة الوجود.

ومن هنا، فالقرآن الكريم حمل الإشارة إلى كروية الأرض منذ زمن التنزيل، ولكن في تلميحات مرصّعة على رؤوس بعض الآيات، ولعل في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾(الرعد:٣) لخير دليل على هذا المعنى. وقد قال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: "إن أبا بكر الأصم قال: المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، وأضاف رحمه الله أن هذا المد المذكور في الآية، يُشعر بأن الله تعالى جعل حجم الأرض عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، وانتقد من قال بتسطّح الأرض معللاً ذلك بأن لو كانت مسطحة لا كروية فيها، فكيف يمكن تصور مدها إلى ما لا نهاية له!"

وقال أبو حيان في تفسيره "البحر المحيط": قال أبو عبد الله الدراني: ثبت بالدليل أن الأرض كرة، ولا ينافي ذلك قوله تعالى ﴿مَدَّ الأَرْضَ﴾، وذلك أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان قطعة منها تشاهد كالسطح.

أما ابن طفيل العالم الفلكي المغربي الذي عاش في القرن ١٢ الميلادي، فقد جاء في معرض تشخيصه لهذه الظاهرة من زاوية تحليله لكروية الأرض والشمس والفَلَك حولها، أنه ثبت بالبراهين القطعية كروية الأرض، ودليله على ذلك أن "الذي يستضيء من الأرض بالشمس هو أعظم من نصفها، وأن هذا النصف المضيء من الأرض في كل وقت أشد ما يكون الضوء في وسطه، لأنه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة، ولأنه يقابل من الشمس أجزاء أكثر، وما قرب من المحيط كان أقل ضوءًا حتى ينتهي إلى الظلمة عند محيط الدائرة". وعزز هذا التحليل بمواقع الشمس والقمر والنجوم من الأرض؛ حيث بيّن -رحمه الله- أن الفَلَك حول الأرض هو في شكل كرة، لأن ما يُرى من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق بعد مغيبها بالمغرب، وما يُرى أيضًا أنه تظهر للبصر

جاء القرآن الكريم يستنهض في الإنسان همة العقل من أجل العلم بخبايا هذا الكون، لكنه ليس دليلاً علميًّا يشمل الإجابة المفصلة عن كل الأسئلة المطروحة حول ظواهر الكون؛ فهو بحمله الإشارة إلى حقيقة كروية الأرض يكون دفع بنا إلى البحث والتنقيب.

حراء

على قدر واحد من العظم في حال طلوعها وتوسطها وغروبها، كل ذلك دليل على كروية مسارها. بينما لو كانت حركة هذه الأجرام حول الأرض على شكل غير كروي، لكانت في بعض الأوقات أقرب للبصر منها في وقت آخر، بحيث تكبر مقاديره في بصر الرائي فيراها في حال القرب أعظم مما يراها في حال البعد، لاختلاف أبعادها عن مركز رؤياه.

هذه التفاصيل التي جاءت بها التفاسير لمد الأرض، وهذه التصورات التي جاءت بها المفاهيم الفلكية حول كرويتها، تتوافق تمام التوافق مع ما كشفت عنه العلوم الحديثة ومع ما ينبض به منطق العقل، لأن من المستحيل أن يحصل مد لا متناه لسطحٍ ما إلا إذا كان يستدير في شكل كروي، أما إذا كان مسطّحًا انتهى المد في حافة، وهو ما لا يمكن أن يحصل في كوكب الأرض.

ولنا في موقع الأرض من الكون المثَل الواضح لتبيان هذه الحقيقة. فالتجانس الحاصل بين المجرات والذي يشكل بناء السماء، إذا أخذناه من بعد نظرية "كوبرنيك" التي نجد لها أصولاً في التصورات الفلكية لابن طفيل، والتي تُبين فلكيًّا أن الأرض تتوسط الكون، بحيث من أية جهة من الأرض نظرت إلى الكون رأيته محيطًا بك، فسنجده يعبّر عن تماسك رائع لنسيج الكون حول محيط الأرض، كشأن خيوط العنكبوت المحبوكة حول دائرة مركزية. وهذا التشبيه لنسيج الكون بنسيج العنكبوت الذي أصبح اليوم متداولاً في التقارير العلمية لعلماء الفضاء بما يشاهدونه من مراصدهم الفلكية (Cosmic Web)، ليس بغريب عنا إذا ما

أخذناه من بعده الشكلي. فقد جاء في تفسير القرطبي لقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾(الذاريات:٧) أن عكرمة قال في تفسير الحبُك: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه، يقال منه حبك الثوب يحبكه حبكًا، أي أجاد نسجه.

فإذا تتبعت هذه الحبك في الكون إلى مركز النسيج، وصلت إلى مجال السماء الدنيا وهي المحيطة مباشرة بالأرض، فوجدتها زُينت بالمصابيح. فإذا أتممت المسار في اتجاه المركز، ولجت نطاق ما بين السماوات والأرض الموصوف عند الله بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾(مريم:٦٥)، فتبيّن لك المغزى من الإشارة إلى البينية في التلميح إلى مركزية الأرض من السماوات السبع المحيطة بها. تلك البينية التي توحي بكروية الفلك حول الأرض التي تبقى بدورها كرة في مركزه.

ومما يزيد هذا المشهد وضوحًا ما جاء به كتاب الله من وصف لتوحد أقطار السماوات والأرض في الإشارة الواردة في قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣)؛ فكون كلمة أقطار توحّد ذكرها بين السماوات والأرض، فذلك يعني أن السماوات والأرض تشكل وحدة بنائية متكاملة، بحيث إذا تأملنا في هذه الكلمة، ونحن نعرف في الاصطلاح الهندسي أن القطر يعني الخط الواصل بين طرفي شكل معين مرورًا بمركزه، ثم إذا تصورنا الأقطار كخطوط تمر بمركز الأرض لتستقيم في جميع الاتجاهات السماوية المتعامدة مع سطحها، فسيبدو لنا عالم السماوات والأرض كشكل كروي تحيط فيه السماوات بالأرض حول مركز كائن في نواتها. وذلك ما يحمل الإشارة إلى مركزية الكرة الأرضية من الكون المستدير حولها.

من جهة أخرى، جاءت الإشارة إلى نقصان الأرض من أطرافها في سورتين من القرآن الكريم الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(الرعد:٤١)، والثانية: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(الأنبياء:٤٤)؛ وفي كلتي السورتين نجد النص القرآني يخاطب الإنسان حول مشهد نقصان الأرض بصيغة الاستفسار عن سبب عدم الرؤية له: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾، للتأكيد على أن هذا المشهد غير المرئي بالرؤية المباشرة يستحق من حيث الدلالة العلمية جهدًا عقليًّا لإدراكه. فكيف يمكن إذن من خلال معطيات العلم الحديث، أن نجسد هذا المشهد ونصل إلى مغزى دلالاته حول كروية الأرض؟

جاء في الاصطلاح اللغوي أن الطرف هو منتهى الشيء، وقيل ما جاوز حد الاعتدال. وأطراف البدن هي اليدان والرجلان والرأس. ومصدر فعل "نقص" هو النقص أو النقصان، إلا أن النقصان له دلالة أدق؛ إذ يفيد القدر الذاهب من المنقوص فيقال نقصانه كذا وكذا. وذلك ما جعلني أستعمله في النص، لأن مثل هذه الظواهر المذكورة في كتاب الله، يخضع تدبيرها لدقة بالغة في التقدير يدل عليها قوله تعالى في نفس المقطع من سورة الرعد: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد:٨). فالأرض ككوكب كروي الشكل يسري عليها عامل النقصان على مستوى أطرافها السطحية الأكثر ابتعادًا عن جسمها، وهي الجبال التي كلما زاد ارتفاعها عن الحد إلا وأتت عليها عوامل التعرية بالنقصان.

هذا السطح الذي تستدير أطرافه حول الأرض استدارة كروية من كل الأقطار، يجعل دورة الأرض حول محورها تجري في إيقاع بديع وتوازن محكم. ولمعرفة درجة الاستدارة في كوكب الأرض، يمكن أن نشبه الأرض بقطعة حجرية، ونطبق عليها المعادلة الرياضية التي وضعها عالم الرواسب الفرنسي "Berthois".

هذه المعادلة تمكّن من حساب درجة اللاتماثل (Asymétrie) عن طريق قياس مسافة الخط الواصل بين قمة أعلى محدب في تلك القطعة (أ) وبين التقاطع المتعامد معه المسقوط على أقصى طرف من القطعة (ب)، ثم قسمة هذه المسافة (أب) على أكبر طول للقطعة (ط). فإذا كان الشكل كرويًّا، ستكون درجة اللاتماثل -كما هو مبين في الشكل- تساوي النصف (٢/١) وهذا يعني أن الشكل متماثل:

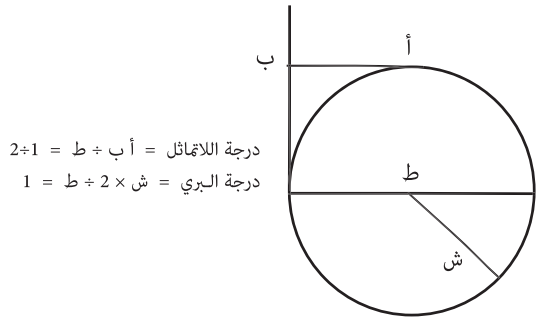

لكن إذا افترضنا الأرض مسطّحة كما يروَّج لذلك، فلن يكون هناك تحدّب متميز يمكن اعتباره لقياس مساحة الخط (أب)، وعليه فسيتمدد هذا الخط بتمدد طول الأرض المنبسطة (ط)، ويميل إلى معادلته. وبذلك سترتفع درجة اللاتماثل لتساوي (١)، وهذا يعني أن الشكل لن يبدي أي أثر للتماثل، الشيء الذي لا ينطبق على ما وُصفت به الأرض في القرآن الكريم من صفات التماثل المرتبطة بخاصية التكوير المتجلية معالمها في تناظر الليل والنهار الوارد في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(الزمر:٥)، وفي تزاوج المشارق والمغارب على سطح الأرض الوارد في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾(الرحمن:١٧)، وما إلى ذلك من الظواهر التي تستدير على سطح الأرض بتعاقب الفصول على مر السنين والأعوام، لتضفي على ظهر الأرض تداولاً متكافئًا لها على مر الزمان وامتداد المكان، بل ولفوجئ الإنسان وهو يجول أطراف الأرض بحواف خطيرة تهوي به إلى فضاء سحيق.

أما إذا انطلقنا من مبدأ كروية الأرض وهو الوصف الصحيح الذي أجمعت عليه الكشوف العلمية ولمّحت إليه الآيات القرآنية، فإن خاصية التماثل الكروي ستتجلى لنا من جميع الاتجاهات، بحيث إن أي جهة رصدناها من الأرض، سنجدها تتماثل مع الجهة المعاكسة لها. فإذا تم هذا المشهد، تساوت مسافة (أب) مع نصف طول الأرض (ط\٢)، فصارت درجة اللاتماثل في الأرض تساوي النصف (١\٢) الذي يعني منتهى الكمال في التماثل الكروي كما يبين الشكل.

فلا يمكن إذن أن يصير التماثل كاملاً في الأرض ما لم تتساوى فيها الأطراف حول محور معين، ذلك هو محور الدوران الذي يضمن للأرض حركتها اللولبية المتوازنة. فإذا زاد أي طرف من الأرض عن حده من هذا المحور، أتت عليه العوامل الخارجية بالإنهاك أي البري، وهو النقصان الذي أشارت إليه الآيتان.

ولتأكيد هذا المعنى، سنقف على المشهد من خلال معالجته من زاوية حركية الأرض، فمدلول كلمة "أطراف" كما سبق ذكره، هو منتهى الشيء. وفي الاستعمال القرآني قد يراد به الجبال كما يظهر من خلال تفسير القرطبي لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾(الملك ١٥)، حيث قال رحمه الله: أي "في أطرافها"، وأضاف أن ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب قالوا "في جبالها". إذن المعنى هنا يُحمل على قمم الجبال باعتبارها الأطراف المتمادية في الابتعاد عن جسم الأرض.

ولتجسيد هذه الظاهرة يمكن أن نشبه المشهد بعملية احتكاك تحصل لأية قطعة حجرية تدور في حركة لولبية بمحاذاة جسم خارجي حاد، فهي لا بد أن تتآكل من أطرافها وتميل إلى الاستدارة. ولمعرفة درجة تآكل أطراف القطعة، يمكن استخراج درجة البري المطبق على أطرافها (Degré d'émoussé) عن طريق قسمة ضعف شعاع أصغر دائرة تشكلها محدبات أطراف القطعة في اتجاه الطول (ش)، على طول أكبر خط مستقيم يصل بين طرفي تلك القطعة (ط)، كما بيّن ذلك Berthois.

وهذا يعني أن شكل القطعة سيصير أكثر كروية كلما تساوت أطرافه حول مركزه، أي اقترب ضعف الشعاع وهو القطر من الطول. فإذا تساوى قطر الشكل مع طوله في جميع الاتجاهات، تمت كرويته كما هو مبين في الشكل. بينما يبتعد عن التكوير كلما تباعدت أطراف منه عن مركزه، وشكلت تحدبات منزوية تختلف أقطارها عن طول الشكل. وذلك ما لا يمكن أن يحصل في شكل الأرض، لأن نتوءاتها الجبلية ما أن تنزوي في أطراف معينة من الأرض وترفع قممها، حتى تأتي عليها مؤثرات السماء بالنقصان، فلا تخرج الأرض عن إطار شكلها الكروي. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

عز الدين عناية*

> لا ينال الفردُ السعادة والنجاح إلا في مجتمع ينبض أمنًا وسلامًا، ولا يصلح المجتمع أو ينعم بالسكينة والرضا إلا بأفراد تشبّعوا بروح الإيثار والإخلاص والتفاني.
>
> الموازين

المثقف العربي في الغرب

ثمة كوكبة مهمة من مثقفي البلاد العربية تتوزع على جملة من البلدان الغربية، باتت تلعب دورًا معتبرًا في الحراك الثقافي الحاصل بين الثقافتين، يطبع اهتماماتها انشغال بقضايا المثاقفة بكافة أبعادها وآثارها، ناهيك عما لها من انعكاسات على الجانبين. ونقصد بالأساس فئة المثقفين الذين اختاروا المكوث الطوعي في الغرب، وليس المثقفين العابرين الذين اقتضت ظروف عملهم أو دراستهم أو ما شابه ذلك. من هذا الباب سنسلّط الضوء على شريحة مَن صاروا مواطنين غربيين، أو من نشأوا في أحضان تلك المواطنة مع استبطانهم لمكوّن حضاري عربي. فأية هوية حضارية تميز هؤلاء، وأي دور وظيفي لهم في ظلّ تقلص فرص التواصل مع بلدان المأتى التي هجروا التفاعل المباشر معها، وتنامى نشاطهم

في بلدان المهجر التي باتوا يعيشون بين أحضانها؟ فأن يكون المرء عربيًّا ثم يغدو غربيًّا، أو أن ينشأ بالمولد غربيًّا ويستبطن رأسمالاً ثقافيًّا عربيًّا (في حال مواليد المهجر) ليس أمرًا متناقضًا، بوصف الغرب هو جملة تراكمات ثقافية تتداخل فيها انتماءات حضارية متنوعة وليس مكوَّنًا مغلَقا يجبّ ما دونه. فالغرب أتون تنصهر في جوفه جملة من التقاليد الثقافية، ما عاد بمقدور الرؤى المنغلقة ادعاء نقاوته الوهمية، أو الحديث فيه عن نموذج مفارق ينبغي ملاحقته والمقايسة عليه، بل هناك صيرورة ثقافية متحركة هي ما يشكّل هوية غرب ما بعد الحداثة. إضافة إلى أن المثقف الكوسموبوليتي، المتحرر من تصلب الهوية، والمرشَّح للتطور وأخْذ دور في ظلّ تحولات العالم الجارية، هو كائن عابر للثقافات، وغير خاضع للتصنيف المعتاد المحصور بمحددات جغرافية تقليدية.

وبرغم ما قد يلوح للوهلة الأولى بشأن تموضع المثقف العربي في الغرب على هامش خارطة المثقفين العرب في الداخل، كونه لا يعيش قضاياهم المصيرية المتمثلة في الديمقراطية وحقوق الإنسان، والعدالة والحفاظ على سلامة الأوطان، والالتزام بإنماء أوضاع الإنسان، فإن بوسع ذلك المثقف النائي أن يغطّي جانبًا وازنًا في جدل الثقافة العربية بالثقافة الغربية، وأن يؤسس لرؤى متزنة بين العالمين تخلو من الإجحاف أو الانتقاد العدمي الصادر من الجانبين. والجلي في هذا التطور الحاصل، أنه ما كان ممكنًا لولا حصول تطور في أوساط الجاليات العربية عمومًا، باتت بمقتضاه مساهمةً في الفعل الثقافي في الغرب وأفضل حال مما كانت عليه خلال العقود السابقة. ترافق ذلك بتنامي حسّ ثقة بين جموع واسعة من المهاجرين، غدا فيه العربي لا يتعمّد إخفاء أصوله الحضارية ولا يخجل من تجليها، ولعله يجد في التشبث ببعض مضامينها الدينية والقيمية واللغوية سندًا قويًّا لوجوده.

ضمن هذا التفاعل الثقافي الجاري بين الضفتين، يجد المثقف العربي المهجري نفسه ماديًّا مرتبطًا بواقعه

صيرورة التحولات التي يعيشها المثقف العربي في الغرب، تدفع نحو تطورات جديدة تضعه على عتبة الدخول في طور جديد يمكن نعته بطور المثقف العربي الغربي، وهو ما يشي بجملة من المراجعات والبنْينة الجديدة للهوية.

الجديد، ومعرفيًّا في معترك زخم مشرَّع على عالمين ثقافيين. وبفعل وعيه المركّب (العربي/الغربي) قد يجد نفسه في مأزق بفعل انتمائه المزدوج، لا سبيل لتخطيه إلا بوساطة وعي تحليلي نقدي عميق أكان لماضيه السالف أو لحاضره الراهن. فليس المثقف العربي الغربي نصير نمط حضاري دخيل، أو لسان دفاع حضارة مظلومة، بل مساهم في حراك ثقافي في الواقع الذي ينتمي إليه برؤية متزنة وواقعية تجافي الإجحاف أو الانتصار المجاني لهذا الطرف دون ذاك. فمن حق المرء أن يروّج لمخزونه الثقافي وعالم رموزه ورؤيته للوجود في أوساط أبناء جاليته في مجاله الضيق، أو بين نظرائه في وسطه المجتمعي الموسع، وهو ما لا يتناقض مع مفهوم الاندماج الذي قد يُفهم خطأ كونه إلغاء لهوية المندمج. لأن الاندماج الصائب هو بالإضافة لما هو موجود وليس بالانغماس السلبي في ما هو مهيمن وغالب. وكل كائن مثقف لا يطمح إلى توسيع نطاق دائرة رؤيته الثقافية التي ينتمي إليها، والتي يرتئي اختزانها لمظاهر قِيمية أو صور جمالية أو أبعاد إنسانية هو مثقف مُقعَد.

ولا شك -ضمن أجواء هذا التفاعل الثقافي- أن هناك أفقًا إنسانيًّا تلتقي فيه الثقافات، برغم ما قد يبدو أحيانًا من تباين بينها، وبرغم ما قد ينشأ من تصارع يُلحق عمدًا بالثقافة، وهو عادة ما يكون مأتاه التنافس السياسي بين فضاءين حضاريين. ففي زمن التوتر الحالي بين العرب والغرب، نشهد تلهفًا في الغرب من قِبل الغربيين على الدراسات العربية -أكان في مجال

hiragate.com

اللغة أو التصوف أو الأدب وما شابهه- يقابله توتر ونفور كلما لامسنا المجالات السياسية والأمنية. وفي هذا السياق العام استطاعت الأنثروبولوجيا أن تحدّ من غلواء مزاعم التمايز والتعالي وأفضلية ثقافة على أخرى، وهو ما يجعل المثقف الإنسانوي يتخطى حدود ثقافته القومية ليعانق أفقًا أرحب.

ناهيك عما ينضاف إلى هذا الجدل، ليس كما يُخيل أن المثقف العربي في الغرب في أريحية من أمره، وهو يعيش في أحضان مجتمعات ديمقراطية وعلمانية مفتوحة، بل هناك ضغوطات متنوعة يقع عرضة لها أكان في مجاله الأكاديمي المنضوي تحت أحد فروعه، أو في وسطه الثقافي العامل فيه والمنتمي إلى أحد شُعبه. فأن تنتمي إلى وسط أكاديمي، أو مؤسسة ثقافية غربية، يعني أن تتبنى الخط العام السائد في ذلك الحيز، بما يمثله ذلك من توجهات سياسية ومواقف فكرية، وأي تشكيك في مشروعيته أو انتقاد لبعض خياراته من شأنه أن يلغي الوفاق الضمني بين المنضوي والمؤسسة ويعرّض علاقته للاضطراب. وبالمثل أن تنتمي إلى فئة اجتماعية وحضارية وافدة على الغرب الحديث، وتبدي انتقادًا للميْز أو الانتهاك أو الدونية المنبعثة من الحاضنة الكبرى، يعني أنك في صف مهددي النموذج العام. لذلك غالبًا ما تفرض أجواءُ التدافع بين الغرب والعرب بسبب أوضاع التوتر السياسية والأمنية، على المثقف المهجري بلورة موقف مما يجري، يعبر في الحقيقة عن فحوى رؤية معينة يتحول إلى معيار لتحديد موقعه. وبموجب حساسية موقع المثقف العربي في الغرب، يملي عليه الظرف ألا يطرح القضايا العربية في الأوساط الغربية ضمن رؤية مشحونة بحمولات عاطفية أو قومية أو حضارية، بل بإصباغ رؤية واقعية عليها بوصفها قضايا إنسانية تهمّ الجميع. وحتى الانتقاد للغرب ينبغي ألا يكون صادرًا عن حسّ قومي للمثقف العربي المهجري، بل ينبغي أن يكون مبنيًّا على أسس واقعية خالية من الحساسيات القومية والعواطف الجياشة التي غالبًا ما تطبع نقد الداخل العربي للغرب، وإلا سقط المثقف العربي الغربي في محاباة أصوله الحضارية، وخلق انفصامًا مع واقعه الغربي المنتمي إليه.

يبلغ الأمر مستوى متقدمًا من الارتباك أثناء لحظات التأزم السياسي يغدو فيها مسموحًا للمثقف العربي المهجري التعاطي مع القضايا العربية من وجهة نظر غربية لا غير. وكل انحراف عن ذلك، من شأنه أن يساهم في إدراجه ضمن خانة "محامي الإرهاب"، أو "نصير نقيض النموذج الغربي"، أو "المشكك في علوية القيم الغربية"، وهي النعوت التي عانى منه جملة من المثقفين العرب في الغرب.

ولكن الخيارات التي يتبناها المثقف العربي في الغرب، ليست بالقدر نفسه من الوطأة على الجميع. إذ ثمة شقٌّ من المثقفين، وهم في الغالب ممن قدِموا في سنّ متقدمة إلى ديار الغرب، يقيمون في دياره ويتركز معظم تواصلهم الثقافي مع حضارة بلدان المأتى، وهو ما ينسحب على شقّ واسع ممن يعملون في المجال الإعلامي والصحفي والدعوي ومجال الترجمة، بما يجعل ارتباطهم المادي غير متأثر بالعلاقة بالغرب. وعلى خلاف ذلك الصنف، هناك شق مرتبط بعلاقات مادية وعملية بالواقع الغربي، تؤثر في قناعاته السياسية وفي خياراته الثقافية. أشرنا إلى تلك المؤثرات المادية التي تتحكم بالمثقف العربي في الغرب، ونحن نعي ما حصل من انهيار للمثقف الديماغوجي المرتبط بعمارات الأدلجة القومية واليسارية أو المتشرب للنزعات المركزية، وبالمثل ما حصل من انحسار لدور المثقف الموسوم بسمة النقدي، الذي أوشك أن يبيد بعد أن ساد في العقود الماضية، وقد بات رهينًا وتبيعًا، أو في أفضل الأحوال منضويًا في مؤسسة ثقافية محكومة بقانون السوق، بما حوَّل المثقف إلى "محترف ثقافة" لا غير. وهو مناخ عام تحوَّل فيه المثقف من "مشرّع" يرسم حدود المحظور والمسموح والصائب والخاطئ، إلى "مفسّر" يعلّق على الأحداث ويلاحق تفاعلاتها، وذلك بفعل متطلبات السوق الثقافية، كما يقول الجامعي الإيطالي "جيوسيبي باتيللا".

hiragate.com

فالمثقف الفرد اليوم في أزمة خانقة، وقلّة نادرة من مثقفي الغرب يمتلكون حقوق أعمالهم الأدبية أو الفنية أو الفكرية، وقد باتت ملكًا لمؤسسات أو شركات ترعى إبداعاتهم، والأدهى أن الأمر لا يتوقف عند تبنّي أعمالهم وتحويلها إلى بضاعة تجارية، بل على صلة بظهوريتهم الإعلامية التي باتت عاملاً رئيسًا في حضور المثقف أو غيابه في السوق الثقافية. لذا تجد المثقفين اليوم مدفوعين دفعًا للعمل ضمن تجمعات ومؤسسات، وهو ما يتجلى في نشاط مراكز الأبحاث والدراسات، أو ما يُعرف بوجه عام بـ"think-tanks"، لأنه لم يبق للمثقف الفرد دور ضمن أوضاع محكومة بالرأسمالية الإعلامية كما يصف عالم الاجتماع مانويل كاستلز الأمر. وبالتالي هناك حاجة ماسة تدفع بالمثقف للانخراط في هيكل "ثقافي مؤسساتي" حفاظًا على ماء الوجه، في ظل انحسار دوره الفردي، وبموجب ما حصل من تبدلات باتت تعصف بأوضاع الثقافة عامة. فالعقود الأخيرة قد شهدت تحول الفعل الثقافي من المثقف الفرد إلى المثقف الجمعي الذي تعبر عنه مؤسسة ثقافية محكومة باستراتيجية مضبوطة وبخيارات سياسية.

وفي جانب له صلة بأوضاع المثقف العربي في الغرب، نقصد مجال الانضمام إلى الأكاديميات الغربية ومراكز الأبحاث المرموقة المهتمة بالدراسات الاستشراقية، فإنه غالبًا ما تنتصب أمام المترشح العربي حتى وإن كان وليد الغرب جملة من العراقيل لا يتخطاها إلا قلة تُخضِع المترشحَ إلى اختبار عسير شبيه بالفرز الأمني الذي دأبت الدول القمعية العربية على ممارسته مع النخب التعليمية والثقافية عند انتدابها. حيث يتم الترحيب بالمثقف العربي في الغرب، حين يتحول إلى حربة ثقافية وسياسية في صراعات الغرب التي يخوضها ضد البلدان المارقة والحضارات "المنحطة"، لذلك نعرف في الغرب ظاهرة المثقفين العرب الموسميين محددي مدة الصلاحية ممن يكلَّفون بهذا الدور العاجل. ضمن هذا السياق يُعدّ الراحل "إدوارد سعيد" حالة فريدة في أوساط المثقفين العرب في الغرب،

بموجب حساسية موقع المثقف العربي في الغرب، يملي عليه الظرف ألا يطرح القضايا العربية في الأوساط الغربية ضمن رؤية مشحونة بحمولات عاطفية أو قومية أو حضارية، بل بإصباغ رؤية واقعية عليها بوصفها قضايا إنسانية تهمّ الجميع.

في قدرة الرجل على اقتحام أعتى الحصون الأكاديمية للاستشراق وإرساء مدرسة ما بعد الاستشراق، أو ما بعد الاستعمار، بات لها أتباعها شرقًا وغربًا، وهو ما يطرح سؤال: ما الذي توفر لإدوارد سعيد ولم يتوفر لغيره، حتى استطاع أن يحقق ذلك الإنجاز الفكري الباهر في الغرب؟ ربما الإجابة عن ذلك، في قدرة "سعيد" على تحويل القضايا الهامشية إلى قضايا إنسانية، بعيدًا عن مضامينها القومية الحصرية، وإلى انضواء الرجل ضمن شبكة تقدمية من المفكرين يجمعهم حس نقدي عال نحو الرأسمالية.

تكشف المتابعة السوسيولوجية للإنتلجنسيا العربية في الغرب عن وحدات معزولة، عاملة ضمن المؤسسات التعليمية والثقافية الغربية، تفتقر إلى التنسيق اللازم فيما بينها، فضلاً عن انسداد قنوات تواصلها بينها وبين الحضارة الأم. لكن أوضاع التوتر بين الغرب والعالم الإسلامي وانعكاساتها المباشرة على الجموع المهاجرة، باتت تدفع المثقف العربي في الغرب، ولا سيما من الأجيال الشبابية الجديدة وليدة الغرب، نحو طرح سؤال الهوية بعد أن كان الآباء متغافلين عن هذا السؤال ومعنيين بتثبيت وجودهم المادي.

صيرورة التحولات التي يعيشها المثقف العربي في الغرب، تدفع نحو تطورات جديدة تضعه على عتبة الدخول في طور جديد يمكن نعته بطور المثقف العربي الغربي، وهو ما يشي بجملة من المراجعات والبنْينة الجديدة للهوية. ■

(*) أستاذ بجامعة روما / إيطاليا.

hiragate.com

أمينة مزيغة*

إن الكلمات التي تُصاغ بلسان القلب، والعبارات التي تحاك بنسيج الحال، لا تضيع أبدًا؛ بل تحفظها الأذهان كما تحفظ الأقراصُ الصلبة المعلومات.

الموازين

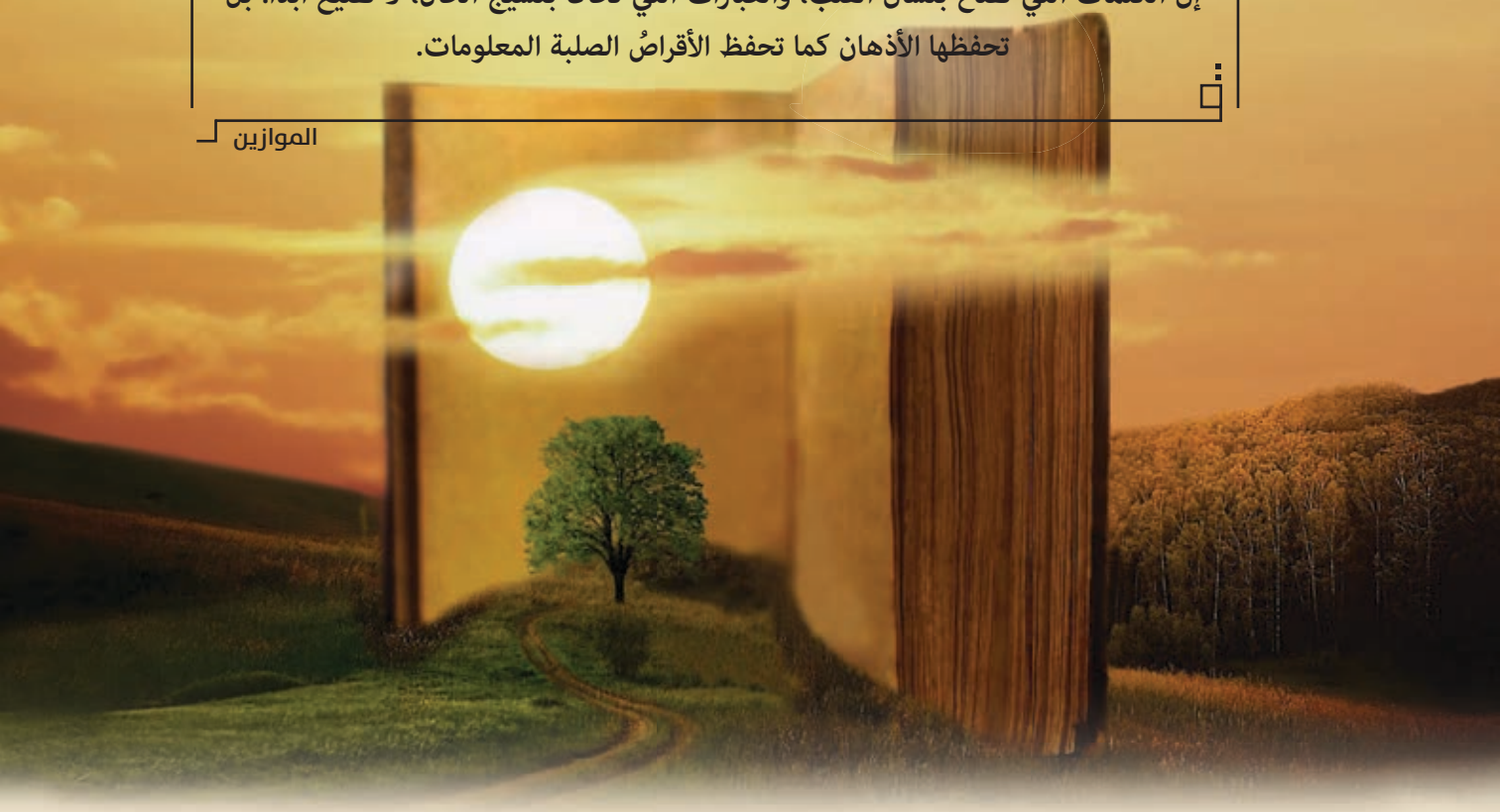

حفظ الدين وجودًا وعدمًا

يعتبر حفظ الدين واحدًا من الضروريات الخمس "التي هي أسس العمران المرعية في كل ملة، والتي لولاها لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، ولفاتت النجاة في الآخرة".

ولما كانت هذه الضروريات هي كل ما لا بد منه في "قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين"، كانت الضروريات كما حددها علماء الأصول خمسة هي "حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل".

لقد جاء حفظ الدين في مقدمة هذه الكليات التي لا يمكن تجاهل أحدها لترابطها وتكاملها، يقول الإمام الشاطبي مبينًا ذلك: "لو عدم الدين عدم ترتب الجزاء المرتجى، ولو عدم المكلف لعدم من يتدين، ولو عدم العقل لارتفع التدين، ولو عدم النسل لم يكن في العادة بقاء، ولو عدم المال لم يبق عيش".

وتبعًا لأهمية هذه الأمور الخمسة، كان لزامًا العمل على حفظها وضمان استمرارها، والحفظ لها إنما يكون بأمرين، "أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيه، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم".

والمحافظة على الدين من جهة الوجود إنما كان بتشريع العقائد من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وبالعبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وغيره، وتسخير كل ما من شأنه أن يعمل على تبليغ وتصحيح عقيدة المسلم وتقويم ما اعوج منها.

كما أنه من الممكن تسخير العديد من الوسائل للحفاظ على الدين، وذلك بتعليمه أولاً والدعوة إليه، وهذا مما يسند إلى العلماء تطبيقًا منهم للأمانة التي حملوها على عاتقهم، وكذا تسخير وسائل الإعلام بكل أصنافها، صحافة مكتوبة، قنوات فضائية، مواقع إلكترونية، علها تكون نافذة تسد واجهة مهمة من الواجهات التي يرتادها عدد هائل من شباب المسلمين، والتي من قد تنجح في صيانة الملة وسد أبواب الذرائع المفضية إلى ذهاب الدين بالكلية، أو ضعفه في نفوس المسلمين.

وأما مراعاته من جانب العدم فبضمان بقائه واستمراره، وذلك بدحض كل محاولات نسف أركانه، ومنع توظيف كل ما من شأنه أن يحول دون تحقيق وبقاء الأمن الديني، والاستقرار الروحي، إذ لا بد من تسخير كل الوسائل التي تكفل حفظ الملة وسد أبواب الذرائع المفضية إلى ذهاب الدين بالكلية، أو ضعفه في نفوس المكلفين.

ولما كان حفظ الكليات الخمس مراعى في الشريعة الإسلامية كما في جميع الملل، وكان حفظ الدين يأتي على رأس تلك الكليات، كان لزامًا معرفة كل ما من شأنه أن يعيق حفظ هذا الكلي الذي بحفظه يتم صون المجتمع من كل ما يهدد استقراره الروحي والعقدي، فما هي هذه المعيقات؟

١- عدم ربط الدين بالواقع: إن الدين لا يعني فقط القيام "بمجموع المعتقدات النظرية والفروض العملية، المطلوب من المتدين أن يتحملها فيما يدين به من دين، فإنه في الأصل وبمقتضى المدلول اللغوي يطلق على التحمل نفسه، إذ معناه اللغوي هو الطاعة، والطاعة هي انصياع إرادة المطيع لأوامر من يطيعه. فالدين يطلق أيضًا على تحمل المتدين للمعتقدات والفروض المطلوبة منه، أو هو -بتعبير آخر- تدينه بها، وهذا المعنى هو الأولى أن يكون مقصودًا لحفظ الدين".

لا يتم حفظ الدين بالتقليد الحرفي لما تمت معرفته من الجانب العقدي، بل لا بد أن يتم النظر إلى التدين في بعده السلوكي؛ بمعنى "ما يتعلق بسلوك الإنسان مع نفسه بإعطائها حقها والحفاظ عليها من التهلكة، وبسلوكه مع أسرته، وسلوكه مع مجتمعه الذي يعيش

لا يتم حفظ الدين بالتقليد الحَرْفي لما تمت معرفته من الجانب العقدي، بل لا بد أن يتم النظر إلى التدين في بُعده السلوكي، ومطلوب من الإنسان أن يجري سلوكه على مقتضى ما هو مطلوب من قبل الله تعالى فعلاً أو تركًا.

فيه، وسلوكه مع الدولة التي تحكمه، وسلوكه مع مطلق الإنسان الذي يختلط به، وسلوكه مع البيئة الطبيعية التي يتحرك فيها، ثم سلوكه مع ربه الذي خلقه، وذلك هو مناط للتدين، وذلك على معنى أن الإنسان مطلوب منه أن يجري سلوكه على مقتضى ما هو مطلوب من قبل الله تعالى فعلاً أو تركًا، فالتدين (...) يشمل جميع ما ذكرناه من الوجود، وهو ما تقتضيه خاصية الشمول التي اختص بها الإسلام".

٢- التقصير في استخدام الإعلام والإنترنيت في التوجيه والتفهيم: فالإعلام بكل أنواعه المكتوب والمرئي والمسموع، لا بد أن يكون إعلامًا موجّهًا يُسخر لخدمة قضية معينة ويرصد فئة معينة، والتي تشكل النسبة الأكبر ممن يتفاعلون مع وسائل الإعلام.

أما شبكة الإنترنيت فتعتبر الأخطر في التأثير على مختلف فئات المجتمع، فتمرير أية فكرة أو رسالة يجب أن يخضع لمجموعة من الشروط، منها الخلو من العبثية، بمعنى أن يكون لها هدف ومغزى، فلا يظن المرسل أنها مجرد رسالة طرحت في بحر الشبكة العنكبوتية، بل لا بد أن تصل إلى من يهمه الأمر، وعندها لا بد أن يجد أفكارًا سوية مقنعة قائمة على دلائل يستسيغها العقل ويعضدها الشرع بعيدة عن التعصب والغلو، ذلك أن محركات البحث أقرب وسيلة وأفضل مصدر معرفي للوصول إلى المعلومة. وإذا كان الجميع يسخر هذه التقنية لخدمة مصالح يفرضها الواقع وتستدعيها ظروف العصر، فمن باب أولى مقارعة الرأي الآخر في أية مسألة -بما فيها الدينية- بنفس سلاحه، خاصة إذا تم بث مواد التشويه والإساءة وسموم الطعن بكيفية تهدد الثوابت الدينية.

hiragate.com

٣- قنوات التبليغ والإفهام والإرشاد: عدم قيام العلماء بدورهم في التبليغ والإفهام، وبيان كل ما يتعلق بالدين الإسلامي للناس، وغياب الحوار البناء مع مختلف شرائح المجتمع الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع، بمعنى العمل على إيصال المعلومة بطرق موضوعية قائمة على البرهان والحجة، والابتعاد عن الإفحام الذي من شأنه قطع حبل التواصل وكذا الطريق على الطرف الآخر وعدم تحقيق الهدف المنشود من الحوار والنقاش والمتمثل في الوصول إلى الحقيقة، ووصول كل الأطراف إلى تقارب في وجهات النظر.

فلما كان الناس ليسوا على وزن واحد من حيث الفهم والإدراك، وكان خلق التواصل ضرورة ملحة لتقريب مضامين الشرع الحكيم من موارده الصافية، كان لزامًا على العلماء تقريب الخطاب الديني لكل الناس مراعين في ذلك مستوياتهم، فيخاطب كل متلقي بما يناسبه فليس المبتدئ كالمنتهي، وليس الجاهل كالمتعلم، وليس الشاب كالشيخ، ذلك أن المكلفين ليسوا على مستوى واحد من حيث القدرة على الفهم لاختلاف أحوال كل منهم حسب الزمان والظروف والقدرات. وبخصوص مسألة الإفهام وضرورتها، وذلك من خلال مجموعة مسالك تكون خادمة لهذا الهدف ومحققة له، لعل أول ما ينظر إليه لتحقيق ذلك جملة أمور منها:

• النظر في المكلف وأحواله، باعتباره محور التشريع، والمقصود به، والمطالب بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

• اعتماد لغة تكون مفهومة وميسرة تحقق قصد الإفهام والتفهيم.

• مراعاة الرفق واللين عند توجيه الخطاب المراد تقريبه.

• إخفاق إمكانية التقريب إذا كان بمعزل عن المعرفة بالواقع.

العقل للفهم والإدراك

لا يمكن الحديث عن تقريب مضامين الشريعة من المكلف أو المتلقي، إذا لم يتم مراعاة مجموعة من الاعتبارات فيه، حتى يكون أولاً مدركًا ثم فاهمًا لما يوجه إليه من خطاب، وأن يكون قادرًا على أداء ما تم إدراكه وفهمه على أتم وجه. وأول ما ينظر إليه عند المخاطبة "العقل"، يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "المكلف وشرطه أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب (...) لأن التكليف مقتضاه الطاعة والامتثال، ولا يمكن ذلك إلا بقصد الامتثال، وشرط القصد العلم بالمقصود، والفهم للتكليف، فكل خطاب متضمن للأمر بالفهم، فمن لا يفهم كيف يقال له افهم؟ ومن لا يسمع الصوت كيف يُكلم؟ (...) ومن يسمع قد يفهم فهمًا ما، لكنه لا يعقل ولا يثبت كالمجنون وغير المميز، فمخاطبته ممكنة لكن اقتضاء الامتثال منه (...) غير ممكن"، فالقدرة على الفهم هي أساس التكليف، وبها تتحدد إمكانية مخاطبة الشخص أو عدم مخاطبته.

والذي يمكن أخذه مما سلف، أن هناك خطابًا، وهناك بعده فهم، ثم تكليف فامتثال، أو بعبارة أخرى لا امتثال دون تكليف، ولا تكليف دون فهم، ولا فهم دون عقل. ثم هناك مسألة الاستعداد لتلقي ما يوجه إليه، ذلك أن المكلفين ليسوا على مستوى واحد من حيث القدرة على تطبيق ما تم فهمه لاختلاف أحوال كل منهم حسب الزمان والظروف والقدرات، فليس الشاب كالشيخ، ولا الصحيح كالسقيم، ولا الذكر كالأنثى.. فمراعاة الخطاب لأحوالهم، وتحسيسهم أنهم مقصودون بالدرجة الأولى بما يوجه إليهم من كلام، كل ذلك مما يُسهم في تقبل الخطاب وتحقيق التواصل.

عدم تسخير لغة ميسّرة لتحقيق التواصل والتقريب

من جهة أخرى هناك مسألة اللغة باعتبارها أداة تتعدى وظيفتها التواصلية بين أطراف مختلفة من المجتمع، إلى وظائف أخرى تربوية وتثقيفية وعاطفية وتفهيمية، ولتؤدي اللغة هذه الوظائف، لا بد أن تكون ميسرة في متناول كل من يوجه إليهم الكلام

مراعاة الرفق واللين عند توصيل الخطاب

إن أي حديث أو كلام لن يلقى آذانًا صاغية ولا قلوبًا واعية، إذا لم يتم توصيله بطريقة تراعي الرفق واللين، وبكيفية محببة إلى نفوس المخاطبين حتى لا ينفضّوا ويديروا ظهورهم، ليس لعيب في مضمون الخطاب، بل

hiragate.com

فيمن يقدم هذا الخطاب، والكيفية التي يقدمه بها. ولا شك أن الناظر في كتاب الله ﷻ يلاحظ أن آياته لم تنزل للتضييق على الناس أو التشديد عليهم، بل "نزلت لهم بالتقريب والملاطفة والتعليم في نفس المعاملة به، قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات". وتبعًا لذلك هناك جملة أمور يتميز بها كلام الله ﷻ عند مخاطبة عباده:

• "الإبلاغ في إقامة الحجة على ما خاطب به الخلق، فإنه تعالى أنزل القرآن برهانًا على نفسه على صحة ما فيه.

• ترك الأخذ من أول مرة بالذنب، والحلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب، مع تماديهم على الإباية والجحود بعد وضوح البرهان، وإن استعجلوا به.

• تحسين العبارة بالكناية ونحوها في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يستحيي ممن ذكره في عادتنا (...) حتى إذا وضح السبيل في مقطع الحق، وحضر وقت التصريح بما ينبغي التصريح فيه، فلا بد منه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾(الأحزاب:٥٣).

• التأني في الأمور، والجري على مجرى التثبت، والأخذ بالاحتياط على هذا المنوال، وسيرًا على نهج القرآن، حري بكل من رام توصيل فكرة أو تقريب مضمون خطاب أن يكون لين الجانب، معتدلاً، واقعيًّا منفتحًا على ما يعيشه الناس من مشكلات، واحتواء ما يمرون به من أزمات، وتوجيههم للخروج منها وفق ما ينص عليه الشرع الحكيم.

المعرفة بالواقع في عملية تقريب مضمون الخطاب الشرعي

من المعلوم أنه قبل التفكير في تقريب مضمون أي خطاب، لا بد من الإحاطة بواقع الناس وفهمه بكل مكوناته، والتبصر بالأحوال والظروف المعاشة للعامة، وكذلك الإحاطة بمختلف القضايا الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية، التي تحيط بالفرد وتؤثر على المجتمع، ذلك أن الواقع "ليس إلا مجموع الوقائع الفردية والجماعية، الخاصة والعامة. ومن ثم فإن فهم ذلك الواقع هو فهم تلك الوقائع واستيعابها وتبيّن طبيعتها وخصائصها"، إذ لا معنى لشحذ العقول بما لا علاقة للمتلقي بها، وبما يضيق به صدرهم.

وهذا ما كان عليه السلف الصالح بالنسبة لأهمية المعرفة بالواقع، خاصة فيما يتعلق باستثمار الأحكام الشرعية كثيرًا ما نقرأ للعديد من العلماء -على اختلاف مذاهبهم- آراء حول أهمية المعرفة بالواقع وضرورته، وأنه لا مناص للحاكم أو المفتي من الإحاطة به. ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المقام الإمام الشاطبي، قال رحمه الله: "لا يصح للعالم إذا سئل عن أمر كيف يحصل في الواقع، إلا أن يجيب بحسب الواقع".

ويؤكد أهمية المعرفة بالواقع ما نقله ابن القيم عن الإمام أحمد أنه قال: "لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال، أولها: أن تكون له نية فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور، والثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة، والثالثة: أن يكون قويًّا على ما هو فيه وعلى معرفته، والرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس، الخامسة: معرفة الناس".

ولمّا كان الواقع هو مجمل "حركات الناس وتصرفاتهم وتعاقداتهم وإقبالهم على فعل الخير والشر بحسب ما يتهيأ لهم من معين على ذلك"، وكان الاجتهاد الفقهي هو التأطير للواقع واقع الأفراد والجماعات والدول والمؤسسات، كان كل ما ينتجه الفقه والفقهاء يسير متفاعلاً متلائمًا مع ما ينتجه الواقع من نوازل وتطورات. فمثل الفقه والواقع كمثل الحبل المضفور تكوّنه خصلتان تلتفّ إحداهما على الأخرى من أوله إلى آخره، فإذا التف الفقه باجتهاداته وفتاويه وتوجيهاته كانت الحياة تسير سيرًا مفتولاً يعطيها متانة وقوة وتماسكًا، وإذا سار الواقع بعيدًا عن الفقه، وسار الفقه بعيدًا عن الواقع فقدت الضفيرة صفتها وفقدت بالتالي قوتها ومتانتها".

"فالفقيه الذي يعلم الواقع على حقيقته، هو الذي يخوض غماره بروحه وجسده وفقهه، فيكون عالمًا بالواقع على الحقيقة لا التوهم، ولا يحتاج إلى الشرح والبيان". ■

(*) أستاذة باحثة بالرابطة المحمدية لعلماء / المغرب.

hiragate.com

د. طاهر فال*

كيف نصنع الإنسان المنتج؟

١

الإنتاجية تعني قدرة الإنسان على حل المشاكل الموجودة في محيطه وفي عصره الذي يعيش فيه، وتوفير حلول لما سيحدث في مستقبله من مشاكل، بتحصيل الوسائل المادية والمعنوية، البسيطة والمركبة.. ومن الحكمة الربانية أن الإنتاجات المادية -بكل أنواعها ومستوياتها- تابعة للإنتاجات العلمية والفنية شكلاً ومضمونًا، لذلك يميل جمهور علماء النفس في تعريفها على أنها ملكة فكرية طبيعية، عاكسة لشخصية وذكاء صاحبها. الإنتاجية هي الملكة المناسبة لمقام عمارة الأرض، كل النصوص الشرعية تؤكد أن الإنسان جاء إلى هذه الأرض حاملاً رسالة تعمير، ولم يأت إليها ليتحمل تحدياتها البيولوجية والاجتماعية. والإنسان المنتج لا بد أن يتوفر لديه هذه المواصفات:

١ – قوة الشخصية: إن تكامل أبعاد شخصية الإنسان بصورة منسجمة، يؤهله لأن يكون سيدًا يدور في فلكه الكون العظيم قادرًا على تكييف محيطه، والشرط الوحيد لهذه السيادة؛ "الحرية" بمعانيها الحقة، وهي تجعله ينظر إلى الحياة نظر تكافؤ وإخاء ومحبة. ويتحرك أو يسكن حسب القناعة المدعومة بروافد العلم والمعرفة، المستقاة من المنابع الصافية للحق والفضيلة، وتستمد هذه الشخصية قوتها من قوة ارتباطها بالمصدر المطلق للقوة، ألا وهو رب العزة ﷻ. إن القوة لله جميعًا. فهذا الارتباط وهذه العلاقة، هو المسمى في مصطلح الدين بـ"الإيمان".

٢ – القيادة الاجتماعية: الإنسان في التعريف الرياضي، دائرة ناشئة من التقاء دائرتين المادة والروح، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢). والمجتمع البشري بدوره دائرة ناشئة من التقاء دوائر متعددة، فهي مسرح كسابقتها لصراع مستمر وصارم. فاستعلاء الجانب الفطري من الإنسان وهيمنته على هذه العوامل المكونة للمجتمع يحقق له هذه القيادية الاجتماعية، إذ تفتح أمامه باب المسؤولية والريادة.

٣ – القضية: يكاد يتفق مؤرخو العصر الحديث على أن أكثر اختراعات الإنسان المعاصر، تمت في فترتي الحرب العالمية الأولى والثانية. نعم ذلك لأن الحاجة إلى هذه المخترعات كانت ملحة في تلك الفترة، بحيث لم تكن مسألة رفاهية، ولكنها مسألة حياة أو موت، وعبروا عن هذه العلاقة بين الحاجة والإنتاجية بمقولتهم المشهورة "الحاجة أمّ الاختراع"، صحيح ولكن الحاجة نفسها قد تكون أم التبعية والاستهلاكية إذا لم تتمكن التربية من غرس وترسيخ القيم المذكورة أعلاه، من حرية وإيمان وقيادية ومسؤولية في الإنسان.

٤ – الرؤى: الجهود البشرية بكاملها لايكون لها أي معنى أو قيمة، أو تقدر على توجيه حركة التاريخ، أو تحقيق سعادة للإنسان على هذه الارض، إلا إذا كانت منبثقة من رؤى تصورية واضحة للحياة. فهي المنطلق

لا ينجح نظام تربوي حتى يقوم على فلسفة تربوية نيرة وناضجة، وهي بمثابة المقدمات الفكرية التي تعطينا صورة عن الإنسان الذي نريد صناعته وتخريجه، وهذه الفلسفة هي التي تقرر مصير النظام خطأ وصوابًا.

الصحيح لكل المشاريع التعميرية، ومنها تنشأ الدوافع القوية للحركات التغييرية التي حددت -ولا تزال تحدد- مصير الأمم والمجتمعات، بدونها تتجزء الحياة بأطوارها شذر مذر. فالإنتاجات كلها خادمة لرؤى إنسانية تحاذي خط سير التاريخ، لأن الإنسان في حالة رشده لا يقوم بأفعال منعزلة عن قصة الحياة الكبيرة التي نصطلح عليها بمصطلح "التاريخ". يأتينا من هذه الزاوية فهم لهذه الآية الكريمة:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾(الكهف:٨٢). فالخدمة الربانية التي نفذها عبد الله "الخضر" عليه السلام بإقامة هذا الجدار، تظهر فيها الأبعاد الثلاثة التي هي أركان الرؤى الكاملة والرشيدة.

أ– النظرة التاريخية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾؛ فعمل الخضر عليه السلام كان استمرارًا لمشروع بدئ قبله من قبل رجل صالح بكل معاني الصلاح، فمنه استمد جذوره وشرعيته.

بـ– التضحية في الحاضر: وتنحصر تحتها معاني الإنتاجية والفعالية، إذ تستمد روحه من دوافع التاريخ واستشراف المستقبل. وتتجسد هذه الخدمة في مؤسسات تتصدى بكل واقعية لتحديات الساحة والساعة ﴿فَأَقَامَهُ﴾.

جـ– النظر والعمل للمستقبل: وهو بُعدٌ لا يؤتى لكل أحد، لأن الإنسان إما أن يكون منغمسًا في يومياته وعصرياته، وإما أن يبتلى بداء الأنانية الفتاك، فلا يفكر إلا في المصلحة العاجلة، ولا يرى ما رآه الخضر عليه السلام ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

وجود هذه الرؤى الشاملة بأبعادها الثلاثة، يفرض على الإنسان المنتج، وضع خطة وانتهاج منهج. فـ"الخدمة" المباركة التي هي بمنزلة العافية لهذه الأمة المريضة، مهدتها رؤى منبثقة من لب الإسلام وجوهره، وتبلورت عبر الأزمنة إلى أن تصل إلى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ومنه إلى الأستاذ فتح الله كولن. فهي الآن برامج وخطط جاوزت مراحل التنظير، لذلك نلاحظ جميعًا هذه الخفة الحركية وروح التنفيذ والتضحية في شباب "الخدمة".

٤ – كفاءة ذاتية: الإنسان مهما بلغت به روح القيادية والمسؤولية وألحت عليه الحاجة إلى الإنتاج، فإنه لن يستطيع أن ينتج أبسط شيء في أي مجال ما لم يتمتع بالشخصية العلمية المدعومة بالآفاق النظرية والمكاسب التجريبية، كما أنه إذا كانت متمتعة بهذه الكفاءة الذاتية، ولم تكن لديه سابقاتها، فإنه يظل أداة بيد إنسان آخر يستغله كأي ماكنة . وإذا أراد المولى جل وعلا أن يحقق للإنسان هذه الخلافة السامية، سخر له أسباب الإنتاج وجعله حلاً لأزمات عصره، كقصته مع نبيه سليمان عليه السلام؛ إذ سخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات.

هذا هو الإنسان المنتج، والسؤال المطروح الآن هو: ما هو المنهج التربوي الذي يقدر على صناعته وتخريجه؟

المنهج الذي وضع لتخريج هذا الإنسان يجب أن يتمتع بالآتي:

• **تكامل شروط المنهج:** المنهج التربوي منظومة ينخرط فيها جميع العناصر الأساسية، لتكوين الإنسان الراقي من علمية، وتقنية، وأدبية، وروحية، وفنية، وثقافية.. إلخ، على تعددها واختلاف طبائعها، ولكنها منسوجة ومنسقة بنسب مضبوطة، وبمعادلات خاضعة لرؤى حضارية سامية وأهداف تقدمية واقعية، فهو بمثابة أي جهاز، جملة من عناصر مركبة، كلها في غاية من الأهمية، بحيث إنه إذا تخلف عنصر منها حدث اختلال في توازن الجهاز وفي نتاجه. وهذا الاختلال هو ما حدث -للأسف الشديد- لكثير من نظمنا التربوية. فقد تبعثرت هذه العناصر في جملة من البرامج التربوية، فبرنامج ديني يرعاه رجال الدين ويهدف إلى تخريج الرجل المسلم المتمتع بالعلوم الشرعية، وبرنامج آخر يرعاه دعاة الحداثة، يهدف إلى تخريج الرجل العقلاني المتمتع بالشخصية العلمية الصارمة، وبرنامج آخر يفتقر إلى التدوين والتكريس. ولكن الواقع يفرض التنشئة الاجتماعية، ويهدف إلى تخريج إنسان متفاهم مع بيئته الاجتماعية، عاكس لصورة مجتمعه.

• **فلسفة تربوية:** لا ينجح نظام تربوي حتى يقوم على فلسفة تربوية نيرة وناضجة، وهي بمثابة المقدمات الفكرية التى تعطينا صورة عن الإنسان الذي نريد صناعته وتخريجه، وهذه الفلسفة هي التي تقرر مصير النظام خطأ وصوابًا.

• **إنسانية التعليم:** عملية التربية في أحدث تعاريفها، رجوع بالإنسان إلى أصوله، وهو التعريف الإسلامي للتربية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(التين:٤-٦). وفقدان النظم التربوية الحديثة لهذه الميزة الضرورية (الإنسانية)، جعل منها مصانع منتجات للمجتمع المستهلك، منتجات أكثرها تسعى إلى تخريب الإنسان ذاته.

• **الهدفية:** من الأزمات التربوية التي ابتلينا بها وتكاد تفتك بحياة الأمة، إشكالية الوسائلية، معناها انقلاب الوسائل أهدافًا، ونكرس فيها حياتنا، ونقيّم أهميتها بالمقارنة مع غيرها، ونفر من مقارنتها مع أهدافها، فترانا نتعلم الكثير ونفني العمر في استيعاب دقائق الوسائل وضبط تفاصيلها، كمن يقرأ علم القراءات ولا يتوصل بها إلى علم التفسير، ويتعلم العربية ولا يتوسل بها إلى العلوم الشرعية أو الإنسانية.

• **وعي جمعي متحمل:** كل النظم التربوية الناجحة في صناعة الإنسان المنتج، لا بد أن تحتضنها نهضة فكرية شاملة لأوجه الحياة الإنسانية، علميّها وتقنيّها وروحانيّها، ويرعاها وعي جمعي تمثلها برامج سياسية رشيدة وواقعية، ومجتمعات مدنية متنورة وقوية. ■

(*) الرئيس السابق للاتحاد الوطني لجمعيات المدارس القرآنية / السنغال.

يوسف الشاطر*

البيروني
مؤرخ الأديان المتخصص

فيلسوف ورياضي ومؤرخ، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وكان ذا شهرة عالية ومكانة متميزة عند ملوك عصره. له مؤلفات كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من العلم ترجمت أغلبها إلى أهم اللغات العالمية. ففي الجغرافيا ألَّف "تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض"، وفي التاريخ ألف "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وفي الفلك له "الاستشهاد باختلاف الأرصاد"، ومما أُثِرَ عنه في الرياضيات كتاب "استخراج الكعاب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب"، وفي الأدب كتب "شرح ديوان أبي تمام"، وله في الفلسفة كتاب "المقالات والآراء والديانات".. وغير ذلك من المؤلفات الضخمة التي تربو على الأربعمائة كتاب. وبهذه المؤلفات يكاد يكون أبو الريحان البيروني (٩٧٣م-١٠٤٨م) قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره.

قدم البيروني إسهامات علمية قيمة في ميدان العلوم التجريبية، فقام بحسابات وحلّ معادلات لا تعالج اليوم إلا بالأدمغة الإلكترونية، واختار أصعب المسائل وحلها، وتسمى هذه المسائل الهندسية والرياضية "مسائل البيروني". وابتكر نظرية خاصة

لتقدير "النسبة التقريبية" الضرورية لحساب مساحات ومحيطات الدوائر، وتمكن من تقدير محيط الكرة الأرضية وقطره. وبالتالي تناولت أبحاثه علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، كما انضم مع ابن سينا إلى الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن الضوء يأتي من الجسم المرئي إلى العين.

ومن أبرز ما قام به البيروني، أنه توصل إلى تحديد الثقل النوعي لثمانية عشر عنصرًا مركبًا، بعضها من الأحجار الكريمة، مستخدمًا الجهاز المخروطي. وفي ظاهرة الجاذبية كان البيروني -مع ابن الحائك- من الرواد الذين قالوا بأن للأرض خاصية جذب الأجسام نحو مركزها. ومن المسائل الفيزيائية التي تناولها البيروني في كتاباته، ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وسريان الضوء.

مكانته العلمية

فلا عجب بعد هذا كله أن نجد المستشرق الألماني "سخاو" يصفه بقوله: "إن البيروني من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، وإنه أعظم علماء عصره، ومن أعظم العلماء في كل العصور"، ونجد "جورج سارتون" يقول فيه: "كان رحالة وفيلسوفًا ورياضيًّا وفلكيًّا وجغرافيًّا وعالمًا موسوعيًّا، ومن أكبر عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم"، ونجد أيضًا المستشرق الروسي "كراتشكوفسكي" يقول فيه: "لا نملك إزاء هذا إلا الانحناء في خشوع واحترام أمام النتائج العلمية الباهرة التي توصل إليها، والتراث العلمي الحافل الذي أنتجه في ظروف الزمان الذي عاش فيه". ولا عجب كذلك أن نجد في القمر أماكن تحمل اسمه، وأن تسمي روسيا مدينة وجامعة باسمه، وتقيم له تمثالاً في جامعة موسكو، وتنظم في شأنه الندوات، ويكرم من قبل دول عديدة.

كتابه حول الأديان

كتاب البيروني حول الأديان "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"؛ يعد هذا الكتاب من أضخم كتب المسلمين التي ألفت في مجال تاريخ الأديان، إذ يقع في حوالي ستمائة صفحة، وقد قسمه البيروني إلى ثمانين بابًا حوت كمًّا هائلاً من الموضوعات المتشعبة والمتشابكة والتي يصعب حصرها. فبعد مقدمة صغيرة ضمنها البيروني بعض ملامح منهجه في الكتاب، استطرد في الحديث عن كل ما يتعلق بالهند من الناحية الدينية والاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها. فقد تطرق فيه البيروني على معتقدات الهنود في الله تعالى، وفي الموجودات العقلية والحسية، وفي الأرواح والجزاء والجنة والنار، ووصف آلهتهم وطقوسهم وفرقهم وكتبهم ومعارفهم وبلادهم وأنهارهم وبحارهم وممالكهم ومنجميهم وشرائعهم وغير ذلك.

وقد اكتسى الكتاب أهمية كبيرة، واشتهر عند علماء الأديان كواحد من أهم الكتب في المجال، وحظي باهتمام الباحثين والدارسين، خاصة الغربيين منهم، والذين أثنوا عليه، وأشادوا بقيمته العلمية، وقد وصفه المستشرق الروسي "روزين" بأنه "أثر فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أو في الشرق".

منهجه في تأريخ أديان الهند

بدأ البيروني وصفه لأديان الهند بانتقاد سابقيه ممّن اهتمّوا بحضارة الهند وتقاليدها الدينية، وأظهر عيوب كتب المقالات وما عُمل في الآراء والديانات، ورأى أن أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط، مخلوط غير مهذّب على رأيهم ولا مشذّب. ولذلك أقرّ البيروني بأنه لم يجد من أصحاب كتب المقالات أحدًا قصد الحكاية المجرَّدة من غير ميل ولا مهادنة سوى أبي العباس الإيرانشهري. ولذلك فقد اتبع البيروني في وصفه لأديان الهند منهجًا يحمل كل سمات المنهج

hiragate.com

العلمي الحديث في دراسة الأديان، ويمكن إجمال سمات هذا المنهج فيما يلي:

١- تحري الأمانة العلمية في نقل الأخبار: وهذه من أهم السمات التي يجب توفرها عند جميع العلماء والباحثين في كل أصناف المعرفة، وخاصة في ميدان دراسة الأديان. وقد كان البيروني ملتزمًا بهذا المنهج في كتابه، فهو ينسب الأقوال إلى أصحابها، وعند الحديث عن موضوع ليس لديه عنه معلومات ومصادر وافية وأصيلة، فإنه لا يلجأ إلى التخمين أو الافتراض، بل يخبر قراءه بذلك بكل صراحة؛ فمثلاً عند دراسته "للشمنية" والحديث عن أساطيرها وخرافاتها يقول: "ولأني لم أجد كتابًا للشمنية، ولا أحد منهم أستشف من عنده ما هم عليه، فإني إذا حكيت عنهم فبواسطة "الإيرانشهري" وإن كنت أظن أن حكايته غير محصلة، أو عن غير محصل". ومن أمثلة الأمانة العلمية لديه أيضًا توقفه في باب: "مبدأ عبادة الأصنام وكيفية المنصوبات" عن إصدار الحكم في أمر لا علم له به، يقول: "أمّا قولكم إن من اليونانية من ذكر أن الأصنام تنطق، وأنهم يقرّبون لها القرابين ويدّعون فيها الروحانية، فلا علم لنا بشيء منه، ولا يجوز أن نقضي على ما لا علم لنا به".

٢- الاعتماد على المعاينة والمشاهدة المباشرة: أي إن البيروني لم يقم بدراسة نظرية لأديان الهند، بل قام بدراسة تطبيقية ميدانية، يدل على ذلك قوله في مقدمة الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، إنّما صدق قول القائل "ليس الخبر كالعيان"، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله". ولم يكتف البيروني بالمشاهدة فقط، بل كان في بعض الأحيان يسأل ويستفسر العلماء والمنجمين ورجال الدين، وفي ذلك يقول: "كنت أقف من منجّميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عمّا هم فيه من مواضعاتهم".

٣- الحياد والموضوعية: ابتعد البيروني عن النقد والجدل، واختفت مرجعيته الإسلامية في ثنايا الكتاب، فكان مجرد حاك وناقل لما شاهده في بلاد الهند، وكان ذلك مما أكده البيروني في مقدمة كتابه، حيث قال: "... ففعلته غير باهت على الخصم ولا متحرّج عن حكاية

اجتمعت في البيروني كل صفات دارس الأديان المتخصص، فإضافة إلى موضوعيته، وأمانته في نقل الأخبار، واعتماده على الدراسات الميدانية، ورجوعه إلى المصادر الأصلية، إنه تميز بإتقانه للغة الأمة وهي اللغة السنسكريتية.

كلامه، وإن باين الحقّ واستفظع سماعه عند أهله فهو اعتقاده وهو أبصر به. وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى أشتغل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه". وقد شهد بموضوعية وحياد البيروني ثلة من علماء الغرب:

يقول "ألانا" (G. Allana) صاحب الكتاب التذكاري عن البيروني: "إن البيروني ألف كتابه عن الهندوسية ولم يكن فيه منحازًا أو متعصبًا، واستشعر واجبه كمسلم في اقتباس نصوصهم كاملة، ولم يكن كتابه كتابًا جدليًا، بل هو تسجيل تأريخي للحقائق قد وضع فيه أمام القارئ نظريات الهندوس كما هي".

ويقول الباحث الأمريكي "إيمبريك": "يتقدم البيروني نحو فهم الاختلافات الثقافية، ويعرض عقائد الهنود تاركًا الهندوسيين يتكلمون عنها بأنفسهم وبتعبيرهم الخاص".

بل إن حياد البيروني بلغ درجة جعلت "إدوارد سخاو" يقول: "إنك تقرأ بعناية صفحات عديدة من الكتاب دون أن يتبادر إلى ذهنك أن الكاتب مسلم، وليس هندوسيا".

٤- اتباع منهج المقارنة: وقد أعلن البيروني عن ذلك في مقدمة كتابه حين قال: "فأُورد كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم". فنجده مثلاً في مطلع الباب الرابع (حال الأرواح وتردّدها بالتناسخ في العالم) يقارن الديانة الهندية ببقية الأديان، من خلال رموزها التأسيسية فيقول: "فكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة

hiragate.com

اليهودية، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يكن منها ولم يعد من جملتها".

٥- التمكن من اللغة السنسكريتية: هناك مجموعة من الأدلة تؤكد تمكّن البيروني من اللغة السنسكريتية، منها ترجمته لكتابين منها إلى اللغة العربية كما صرح بذلك في مقدمة كتابه: "وكنت نقلت إلى العربي كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات واسمه "سانك"، والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف "بياتنجل"، وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم". ومنها أيضًا وصفه لهذه اللغة بدقة متناهية، وذلك في قوله: "ومتى رامها أحد لإزالة المباينة، لم يسهل ذلك لأنها في ذاتها طويلة عريضة تشابه العربية يتسمّى الشيء الواحد فيها بعدة أسام مقتضبة ومشتقة، وبوقوع الاسم الواحد على عدّة مسمّيات.. ثم هي منقسمة إلى مبتذل لا ينتفع به إلا السوقة، وإلى مصون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه غير الفضلاء المهرة، ثم هي مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية ولا تشابهها، بل لا تكاد ألسنتنا ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها". ومنها استعماله الكثيف لبعض مصطلحات هذه اللغة، مثال ذلك قوله: "إلا أني كنت أسمع منهم التصعيد والتكليس والتحليل وتشميع الطلق وهو بلغتهم "تالك".. ولهم فن شبيه بهذا الباب قد اختص الهند به ويسمّونه "رساين"، وهو اسم مشتق من الذهب".

٦- الاعتماد على المصادر الأصلية: إلى جانب دراسته الميدانية، اعتمد البيروني -كذلك- في وصفه لأديان الهند على مصادرها المكتوبة. وقد صرح بذلك في أكثر من موضع، فقال مثلاً في سياق حديثه عن كتابه: "ولقد أعيتني المداخل فيه مع حرصي الذي تفرّدت به في أيامي، وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظانّ، واستحضار من يهتدي لها من المكامن".

والمطالع لكتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، يجد إشارات متكررة من البيروني إلى كتب الهند، سواء كانت إشارات عامة، أو إشارات خاصة إلى كتب بأسمائها، نذكر من ذلك:

"قال السائل في كتاب "باتنجل": "من هذا المعبود الذي ينال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني بأوّليّته".

"ونحن نذكر ها هنا أيضًا من كتبهم ما يصرّح بهذه المعاني، ففي "بشن پران": إن "ميتري" سأل "پراشر" عن الغرض في جهنم والعقاب به؟ فأجابه بأن ذلك لتمييز الخير من الشر، والعلم من الجهل، وإظهار العدل".

يقول المستشرق الروسي "فاسيلي فلادمير" مؤكدًا اعتماد البيروني على المصادر الأصلية للهنود: "وألَّف كتابًا قيمًا عن الهند، يدل على نظر واسع وحياد علمي تام، وفي كتابه عن الهند معلومات واسعة عن الأديان والعلوم التي فيها، وقد استقاها البيروني من منابعها الهندية المباشرة".

لقد اجتمعت في البيروني كل صفات دارس الأديان المتخصص، فإضافة إلى حياده وموضوعيته، وأمانته في نقل الأخبار، واعتماده على الدراسات الميدانية، ورجوعه إلى المصادر الأصلية، فقد تميز بصفة غابت عن جل علماء الإسلام المتقدمين الذين تطرقوا لموضوع الأديان، ألا وهي إتقانه للغة الأمة التي تناولها بالدرس والوصف، وهي اللغة السنسكريتية.

وهكذا يمكن القول إن علماء الإسلام -ومنهم البيروني- قد قدموا إسهامات قيمة في ميدان دراسة الأديان، تميزوا بها عمن سبقهم، وسبقوا بها من بعدهم، سواء على مستوى المنهج أو النتائج المتوصل إليها، حتى وإن لم يكن علم مقارنة الأديان علمًا إسلاميًّا، فيكفي المسلمين فخرًا ما قدموه من إسهامات كان لها الأثر الكبير والواضح في تأسيسه وتأصيله. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

المراجع

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان البيروني، مقدمة الناشر.

(٢) أعلام الجغرافيين العرب، حميدة عبد الرحمن.

(٣) مدخل لدراسة تاريخ الأديان، مسعود حايفي.

(٤) تطور الفكر العلمي عند المسلمين، عفيفي محمد الصادق.

hiragate.com

عبد العزيز الإدريسي*

ما المقصود بالوعي السنني؟

حاولت وتُحاول حركات الإصلاح المعاصرة أن تجيب على الإشكالات المتسارعة التي تعيشها مجتمعاتها، من خلال إبداع مقولات تغييرية ومشاريع إصلاحية، غير أن أغلب هذه المشاريع لم تحقق كل أهدافها، ولم تنجز كل برامجها لأسباب كثيرة ذاتية وموضوعية، داخلية وخارجية، ولا شك أن من بين أهم عوامل الإخفاق، هو فقدان الوعي السنني[1]، إنْ على مستوى التنظير أو الممارسة قيادة وأعضاء، أو على مستوى التطوير والمراجعة. وهذا لا يعني أننا نعمم هذا الحكم، بل يمكن أن نتلمس بعض مظاهر الريادة في تنزيل مقتضيات الوعي السنني عند بعض المشاريع الإصلاحية مشرقًا ومغربًا، وكيف أن استثمارها لمبدأ السننية والعمل بمقتضياته، أسهم في الرفع من فاعليتها الإنجازية وتحقيق أهدافها المرحلية والإستراتيجية.

ما المقصود بالوعي السنني؟

نقصد بـ"الوعي السنني" الإدراك الحقيقي للأنظمة والنواميس والقوانين الثابتة، التي أودعها الله تعالى في كل مفردة كونية لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام، والانتقال بهذه السنن من دائرة الإهمال إلى دائرة الإعمال[2]. والسننية بهذا المعنى، من أهم مفردات التصور الإسلامي وخصائصه كما أصلها القرآن الكريم وجسدتها السنة والسيرة النبوية. ويكفي أن الله تعالى أمر المسلمين باستنباط والاعتبار بالسنن المؤطرة للنهوض

"الوعي السنني" هو الإدراك الحقيقي للأنظمة والنواميس والقوانين الثابتة، التي أودعها الله تعالى في كل مفردة كونية لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام، والانتقال بهذه السنن من دائرة الإهمال إلى دائرة الإعمال.

والسقوط الحضاري، من خلال السير في الأرض، والنظر في تجارب السابقين مؤمنين ومكذبين، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١٣٧-١٣٨).

ويبين ﷺ بأن هذه السنن مترابطة يخدم بعضها بعضا بشكل مطرد ثابت مستمر لا يتبدل ولا يتغير ولا يتحول، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، ويقول ﷻ: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء:٧٧)، وغيرها من الآيات والشواهد كثير. فقد وردت لفظ "سنَّة" ثماني عشرة مرة في القرآن الكريم.

ومن ثم كان العدول عن التعامل مع السنن الجارية واكتشاف قوانين التسخير، إلى السنن الخارقة وانتظار المنقذ القادم من الغيب ليعالج التخلف والتأخر والتمزق، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا وظلمًا. وفي هذا ما فيه من مجافاة للعقل المسلم والإنجاز الحضاري في عصر النبوة[٣]، عصر السعادة والأسوة.

من معالم الوعي السنني

أ- امتلاك رؤية إستراتيجية للإصلاح، تنطلق من قيمنا الذاتية وتجربتنا الحضارية، عبر قراءة منهاجية لنصوص الوحي، وتفسير موضوعي لأحداث التاريخ، واستيعاب مستبصر لمعارف العصر ومستجداته.

بـ- العمل بمبدأ المشاركة والتلطف والتعاون على الخير في البناء والإصلاح. وفي هذا الصدد نستحضر الحديث النبوي الصحيح الذي يؤسس لهذا المعلم السنني: "مثَل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" (رواه البخاري). ففي الحديث الشريف تصوير بلاغي دقيق لسنن الله تعالى في التشارك والتلطف والتعاون على الخير.

جـ- التدرج في الإصلاح والتروي في تغيير الواقع وعدم الاستعجال. فهذا عبد الرحمن الكواكبي يؤصل لهذا المعلم من خلال قوله: "إن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدريج"[٤].

د- الجمع بين الفكر والفعل في السلوك الإصلاحي، حتى لا تكون الأفعال قبورًا للأفكار، يقول الأستاذ فتح الله كولن في كلام نفيس: "دستورنا في هذا الصدد أن الأفكار التي تسري في مفاصل الحياة المعيشة، هي التي تستحق الحياة"[٥]، ويؤكد هذا المعنى بقوله: "يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر، وقسم آخر منهم يفكر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة فقط، أمّا ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مركبات فكرية مختلفة[٦].

إذن، إن الوعي السنني ضرورة منهاجية لترشيد مشاريع الإصلاح وتقصيد فاعليتها الحضارية. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(٣) القرآن والعقل، المقرئ أبو زيد الإدريسي، الجزء الأول، ص:٥٢ وما بعدها.

(٢) مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية، الطيب برغوث، ص:٩.

(٣) حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، ص:١٠.

(٤) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، ص:١٨٢.

(٥) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، محمد فتح الله كولن، ص:٨٧.

(٦) ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ص:١٢٠.

hiragate.com

آسية شرفي*

أمهليني

أمهليني قليلاً أمي حتى أستوفي بعض ديوني لكِ، لا ترحلي قبل أن أملأ فراغاتي بكِ قبل أن أكتمل منكِ، فأنا لا زلت أعاني النقصان وأمتص منك بعض ما يكملني. لا ترحلي، كيفما كان الرحيل فحتمًا لن أتمكن من استبدالك بسماء أخرى تغطي كياني العاري دونكِ، ولا بئرًا عميقًا يرويني كلما اشتد عطشي، ولا أرضًا تصلح لي لأنمو وأزهر. إني لا أزهر بعيدًا خارج أرضكِ، كما أنني أعاني رهابًا يجعلني أمتنع عن النوم بغير حماكِ. دروب الحياة يا أمي باردة فدثريني بحنانكِ، وامنحيني كما دائمًا عطفك. أمهليني قليلاً حتى أقطع مسافات البوح لكِ، فقد رسمت بقلبي لوحة سريالية أذوب خجلاً من حسنها وبهائها.

أمي لا تبتعدي فأنا أحبكِ وأتنفس الحياة بكِ، أحبكِ يا أمي حبًّا ليس كأي حب، حبًّا بلا ابتداء ولا انتهاء، كاملاً غير ناقص، ذليلاً خاشعًا مبتهلاً أمام جود حبكِ، حبًّا جعلني لا أتذوق طعم الوجود إلا من عينيكِ.. هذا الحب يا أمي زهرة أنتِ زرعتها تحت نيران السنين الطويلة المتعبة وصقيع الليالي التي أمطرت ثلجًا على مقلتيكِ ليذوب دفئًا على كل جزيآتي ويبعث الحياة بي طويلاً، وأنا أقطفها منذ الأزل دون كلل. كيف أطلق عنان البوح لكِ الآن أمي بكل ما تجمع عندي من مشاعر ضاربة في القدم وفي زوايا قلبي، كل الزوايا حتى التي لا زلت طفلة في اكتشافها. حبي لكِ سر مقدس أتعبد به الله، أنت دنياي الجميلة أعيش فيكِ ومنكِ وأسكن إليكِ.

كلمات الاعتذار عاجزة أمام تقصيري وتعابير الحب مشدوهة أمام فيض حبي وإن أتممت حبري ما استوفيت قدركِ ولا عطاءكِ ولا موتكِ من أجلي كل حين. أنتِ آية الله في عالمي، أنتِ بدايتي التي منها انطلقت، وكراستي التي منها تعلمت، ووسادتي التي عليها بكيت ونمت. أنت هيئة دفاعي وممرضتي وملهمتي وملاكي الحارس من نائبات الدهر، أنت دمعتي المثقلة بالذنوب من تقصيري، وغيثي من جفاف أيامي، صدقيني يا أمي قد أموت سواكِ فأنتِ الحياة. ■

(*) كاتبة وأديبة مغربية.

د. إدريس مقبول*

السنّة النبوية وعلم المستقبل

يقسم الناس اليوم حول السنة النبوية، فمنهم من لا يرون في السنة إلا تراثًا لا يصلح في أحسن الأحوال إلا للسرد والتبرك قاعدين متقاعدين، ومنهم من لا يرون في المصادر إلا القرآن ويسقطون السنة من الحساب ويسردون في ذلك واهيات العلل والأسباب، ومنهم نفر لا يرى في السنة إلا كلامًا منقولاً عن النبي ﷺ لا يرقى ليؤسس نظرية في المعرفة ومنصة إطلاق لكثير من الرؤى في الإدارة والتخطيط والأخذ بأسباب الحضارة، تتساند مع منهج القرآن تبيينًا وتفصيلاً عمليًّا وتأسيسًا لدرر الفكر الذي ما أحوج الأمة لتلقفه استلهامًا لأجوبة مشرقة عن أسئلة العصر المقلقة.

إننا نعتقد أن الأمة في مسيس الحاجة إلى دراسات تشرح الواقع بعين الوحي قرآنا وسنة لنفهم طبيعة أمراضنا وعللنا، إلى جانب بحوث تستطلع وتستشرف المستقبل، لأن سؤال الغد سؤال جوهري لكل من يقدم نفسه معالجًا لوضع البشرية المفكك. إنه التخطيط وبناء المعرفة المستقبلية، تلكم المعرفة الملتصقة بتطلعات الأمة ومشكلاتها وهمومها، إنها قرون الاستشعار الممدودة في جوف المستقبل، وعلى مقدار تحسسها له والتصاقها به، تكون كفاءتها وصلاحيتها.

يعرّف "هنري فايول" أحد رواد الفكر الإداري الغربي

التخطيط بأنه: "التنبؤ بما سيكون عليه المستقبل مع الاستعداد لهذا المستقبل"[1]، ويعرّفه "البرعي وعابدين" بأنه: "التصور المستقبلي المبني على الدراسة والتحليل للوقائع، والإحصائيات الثابتة للعمليات المستقبلية، ويتم -عادة- قبل العمل والتنفيذ"[2].

يلزمنا ونحن نعالج قضية المستقبل، أن نطرح السؤال التالي: هل كان في السنة النبوية تصور مستقبلي؟ هل كان فيها دراسة للبدائل؟ هل كان فيها نفس توقعي لأزمات قادمة؟ أم أن الأمر كان انتظارية وواقعية صماء تعالج ما نزل من الأمور والحوادث بما أتيح وأمكن ضمن شروط العصر ومتاحاته؟

حقيقة، لقد رفض الإسلام استشراف الغيب من طريق غير مشروع يدعي فيه المستشرف إمكان معرفته بما استقل الله تعالى بعلمه قبل وقوعه بالإطلاق، لكنه لم يرفض ما جاء من طريق الدراسة العلمية التجريبية أو الميدانية. فهذه الدنيا قائمة على سنن، منها ما يسير به الكون ومنها ما يسير به التاريخ، سنن في الطبيعة وسنن في المجتمع، والذي يتعرف إلى هذه السنن يستطيع أن يتنبأ بالنتائج إذا وجدت أسبابها دون أن يكون ذلك علمًا بالغيب أو مزاحمة لله في علمه. فالله الذي أذن للإنسان أن يتعرف على الكون وعلى نفسه، هو الذي أذن له أن يتعرف على حركته ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، وتبقى الفروق ثابتة بين علم الله المحيط وعلم الإنسان المحدود، بين علم الله المطلق وعلم الإنسان النسبي[3].

والمسلمون اليوم تأسيًا بما علمهم رسول الله ﷺ في سيرته العطرة، مدعوون للأخذ بأسباب استشراف المستقبل، بما ترشحه وسائل العصر الحديث من إحصائيات وحسابات ودراسات مدققة في اتجاه الرقي بالعمل الإسلامي وحفظه مما يمكن أن يأتي عليه بالهدم والنقض أو العرقلة والتعطيل.

إن السنة في جوهرها تعلمنا الاستعداد لكل نائبة متوقعة من نوائب الدهر عن طريق استشراف المستقبل، والتخطيط المسبق، والنظرة بعيدة المدى. فنحن مستخلفون في هذه الأرض، فوجب أن نعدّ لها عدتها، ليس على أنها دار قرار أبدي، ولكن على أساس أننا مطالبون بعمارتها. ولا عمارة من غير تخطيط واستشراف

إذا أردنا استشراف المستقبل ببصيرة وصدق، فعلينا أن ندرك أن خير ما يمكن أن نفعله هو تحسين قرارات الحاضر والارتقاء بها؛ إذ ينبغي ألاّ تخدعنا الأوهام، ونظن أن جهودنا الحالية في التنمية ستحسن من فرص العيش الكريم للناس في قابل الأيام.

حراء

للمستقبل، ولا تعارض إذ ذاك بين المفهومين، ومفهوم التخطيط في السنة هو من صميم التوكل والعزم، ويكفي أن نستحضر حديث النبي ﷺ ناصحًا: "لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين" (رواه البخاري)، للتأكيد على الحاجة لوعي الأخطاء في التخطيط للمستقبل، وهي قاعدة لا غنى عنها في الدراسات المستقبلية. وكذا حديث الأعرابي مع النبي ﷺ الذي أخبره أنه ترك ناقته عند باب المسجد، وقد توكل على الله دون أن يعقلها فهربت، فأخبره النبي ﷺ: "اعقلها وتوكل" (رواه ابن حبان) في دلالة مباشرة على أن مفهوم التخطيط الإسلامي، ينبغي أن يأخذ بالأسباب الشرعية مع التوكل على الله في تلقي النتائج.

النبي ﷺ يقدم المخطط الراجح

هناك نمط في ميدان التخطيط يسمى "النمط الاستطلاعي" (Exploratory)، وهذا النمط يستند إلى محاولة استشراف المستقبل المحتمل أو الممكن تحقيقه، من خلال معطيات علمية، وبيانات توضح العلاقة ما بين العناصر المبحوثة، مثلما فعل النبي ﷺ في مشاوراته في غزوة بدر وغزوة الخندق.

فالتخطيط الاستطلاعي قضى تقديم خطة الحباب بن المنذر في بدر بتغيير موقع النزول والتربص، وقد أدى ذلك الاختيار الموفق للنقط الإستراتيجية بحيث تكون في منأى عن العدو، ويتحكم المسلمون في مصادر القوة "المياه"، فيجعلونها خلف خطوطهم للاستفادة منها في المعركة دون أعدائهم، فتم بذلك تأمين نقطة نفيسة في إدارة الحرب من خلال تخطيط استطلاعي محكم.

وهكذا يبدو لنا أن مقتضيات التخطيط -سواء المدني أو العسكري- للمستقبل القريب والبعيد، هي في جوهرها "اتخاذ قرارات" في ماذا سنعمل؟

hiragate.com

وماذا نعمل؟ وماذا لن نعمل؟ فكثير من الأهداف والإجراءات هي مهمة وضرورية، وكذلك كفاءة الفريق أو المجموعة؛ فقد كان النبي ﷺ يعمل بمنطق الفريق والجماعة في اختيار أكثرها أهمية، وتأخير أو إلغاء أهداف أو إجراءات أخرى هامة، وهو ما فعله رسول الله ﷺ. والمقياس للتقديم أو التأخير هو في مردودها الكبير على فعالية النشاط أو العملية المرتقبة.

وفي بدر لم يكن اختيار الإجراءات الإستراتيجية مرتبطًا بفرد واحد، بل شارك فيه أكثر من عنصر وهو أرقى مستوى في التخطيط، يعرف بالتخطيط الجماعي، حيث يعهد بالأمر في استشارات موسعة يقدم فيها الأكثر خبرةً وعلمًا في مجال الهدف، فكل علم يسأل عنه أهله، وما خاب من استشار، والحكمة ضالة المؤمن.

وفي مثال ثانٍ، نرى كيف قدم النبي ﷺ خطة سلمان في الخندق، حتى كانت غزوة الخندق (الأحزاب) من أنجح المعارك الدفاعية على مر التاريخ، إذ تمكنت قوة صغيرة من الدفاع عن المدينة ضد قوات متفوقة عددًا وعدّة، ويرجع ذلك إلى إشارة سلمان الفارسي ﷺ على رسول الله ﷺ بأن الفُرْس يستخدمون الخنادق مانعًا صناعيًّا، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن طور الرسم الهندسي للخندق، حتى يكون مانعًا هندسيًّا منيعًا يخدم الخطة الدفاعية، وقام بحفر خندق طوله ٨ كيلومترات وعرضه ٦ أمتار وعمقه ٥ أمتار. وقد برع رسول الله ﷺ في تكوين ذلك المانع الهندسي أمام الحد الأمامي لدفاعات المسلمين، فقد ارتكزت جوانب ذلك الخندق على موانع طبيعية من الصخور، والتي لا يمكن للعدو التقدم من قِبَلها.

وكان لحفر الخنادق تطور كبير في التخطيط للمعارك الدفاعية؛ حيث لم يكن معروفًا في شبه الجزيرة العربية. وقد كان هذا الخندق، أول تجهيز هندسي لموانع عسكرية في ذلك العصر، ثم أصبح إحدى أعظم التجهيزات الدفاعية في العصر الحديث، وخاصة أن ذلك الخندق تم اختيار موقعه في عنق المواجهة على طريق الاقتراب إلى المدينة. وقد كان لرسول الله ﷺ الفضل ليس في عمل الخندق، وإنما في اختيار المكان والأبعاد الهندسية التي أمر بها، بحيث لا يستطيع لا الأفراد ولا الفرسان اختراقه أو تجاوزه.

عناية الرسول ﷺ بالإحصاء في استشراف المستقبل

لا يمكن بناء خطط إستراتيجية للمستقبل دون إعمال لمعطيات حسابية وبيانات رياضية مدققة تكون بمنزلة المقدمات لبرامج المستقبل وعملية اتخاذ القرار، وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على الإفادة من معطيات الإحصاء كما جاءت بذلك الأخبار المروية؛ فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أَحصوا لي كم يَلْفِظُ الإسلامَ؟ فقلنا: يا رسول الله أتخافُ علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تُبْتَلوْا، فَابتُلينا حتى جعل الرجل منَّا لا يُصلّي إلا سِرًّا".

وقد جاء في رواية البخاري "اكتبوا"، وفي بعض الروايات للبخاري وغيره "اكتبوا من يلفظ بالإسلام فكتبنا"، وفي رواية النسائي وغيره "أَحصوا لي من كان يلفظ بالإسلام"، وفي رواية أبي يعلى الموصلي "أحصوا كل من تلفظ بالإسلام". ووقع في رواية البخاري: "فكتبنا له ألفًا وخمسمائة" فقلنا: تخاف ونحن ألف وخمسمائة"، وفي رواية للبخاري أيضًا: "فوجدناهم خمسمائة" وقد يقال وجه الجمع بين هذه الألفاظ أن يكون قولهم "ألف وخمسمائة"؛ المراد به النساء والصبيان والرجال، ويكون قولهم "ستمائة إلى سبعمائة" الرجال خاصة، ويكون "خمسمائة" المراد به المقاتلون، ولكن هذا الجواب باطل برواية البخاري في أواخر كتاب السير في باب كتابة الإمام الناس قال فيها: "فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل"، والجواب الصحيح إن شاء الله تعالى أن يقال: لعلهم أرادوا بقولهم ما بين الستمائة إلى السبعمائة رجال المدينة خاصة، وبقولهم: "فكتبنا له ألفا وخمسمائة" هم مع المسلمين حولهم، وأما قوله "ابتلينا فجعل الرجل لا يصلّي إلا سِرًّا" فلعله كان في بعض الفتن التي جرت[٤].

إن اهتمام المحدثين والشراح ﷺ، انصرف لتوجيه اختلاف العدد الوارد في الحديث، ولم يلتفت كثيرًا لأهمية الإحصاء في حد ذاته وفقه التخطيط والاستشراف في هذا الحديث، والعبارة الجوابية للرسول ﷺ تعطينا

hiragate.com

بُعْدَ الاستباق "Anticipation" في تخطيطه وإحصائه: "لعلكم أن تبتلوا"، أي إن الهدف من وراء الإحصاء مرتهن بتخوفات من المستقبل ينبغي الإعداد لها والتهيؤ لمجيئها. إنه التفكير في العقبات والتهديدات ونقاط القوة ونقاط الضعف.

وعناية الرسول ﷺ بالإحصاء جاءت في غير ما محل، من ذلك ما روي عنه حين تعرف إلى عدد جيوش الأعداء، من خلال السؤال عن عدد ما ينحرون من الإبل كل يوم، فجاء من حديث علي ﷺ قال: "لمَّا قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها، فاجتويناها وأصابنا بها وَعْك، وكان النبي ﷺ يتخبَّر عن بدر، فلما بلَغَنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله ﷺ إلى بدر، وبدرٌ بئرٌ، فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم: رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ، فقال له: "كم القوم؟"، قال: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجَهَد النبي ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى، ثم إن النبي ﷺ سأله: "كم ينحرون من الجُزر؟"، فقال: عشرًا كل يوم، فقال رسول الله ﷺ: "القوم ألف، كل جَزور لمائة وتَبِعَها"، ثم إنه أصابنا من الليل طَشٌّ من مطرٍ، فانطلقنا تحت الشجر" (الإمام أحمد).

والحق أن النبي ﷺ كان ذا نظر ثاقب ورؤية بعيدة مستشرفة للمستقبل حين أمر بكتابة وإحصاء عدد المسلمين، ذلك أن من شروط القيادة المحنكة والرشيدة، أن لا تبادر لاتخاذ أي قرار يهم جماهير الناس الذين تسوسهم حتى تنظر في عددهم الإجمالي وميولاتهم واتجاهاتهم، وهو عين ما قام به الرسول ﷺ حين أمر بإحصاء من يلفظ بالإسلام. فهو إحصاء مبني على قاعدة الميولات الفكرية المكونة من القيم (Values) والمعتقدات (Beliefs)، يقول تومبسون: "إن معرفة المستقبل ينبغي أن تعتمد على معرفة الاتجاهات والميول قبل معرفة أي شيء آخر"[٥].

وهكذا، فإن الإحصاء، باعتباره أداة تقويم وقياس في عمليات التخطيط للمستقبل، وظفه النبي ﷺ توظيفًا ذكيًا

إن السنة في جوهرها تعلمنا الاستعداد لكل نائبة متوقعة من نوائب الدهر عن طريق استشراف المستقبل، والتخطيط المسبق، والنظرة بعيدة المدى. فنحن مستخلفون في هذه الأرض، ومطالبون بعمارتها.

يضاهي ما توصلت إليه أحدث المقاربات المعاصرة في دراسة المستقبل قياس قدرات الذات وقياس قدرات الخصم، قياس نقاط القوة وقياس نقاط الضعف. والتخطيط له يذكرنا بما يسمى بـ"التحليل الإستراتيجي الرباعي"، أو ما يصطلح عليه اختصارًا بـ"SWOT" وهو دراسة المعلومات والبيانات والآراء للتعرف على نقط القوة والضعف، وكذلك التعرف على الفرص المتاحة والتهديدات المتوقعة في البيئة المحيطة.

في الختام، بقي أن نقول بأنه إذا أردنا استشراف المستقبل ببصيرة وصدق، فإن علينا أن ندرك أن خير ما يمكن أن نفعله على الفور في سبيل ذلك، هو تحسين قرارات الحاضر والارتقاء بها؛ إذ ينبغي ألاّ تخدعنا الأوهام، ونظن أن جهودنا الحالية في التنمية، وحديثنا بملء الفم عن المستقبل، سوف تحسن من فرص العيش الكريم للناس في قابل الأيام؛ إذ من غير المألوف أن نستولد مستقبلاً جيدًا من واقع رديء، قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، وهي أم القواعد في باب التطوير والتنمية وتصميم المستقبل. ■

(*) أكاديمي ومفكر مغربي.

الهوامش

(١) Fayol, Industrial and general management, Translated by Constance Storrs, London: pitman, publishing co, ltd, p43.

(٢) الإدارة في التراث الإسلامي، محمد البرعي، وعدنان عابدين، مكتبة الخدمات الحديثة، ج١، ١٩٨٧، ص:٢٥.

(٣) الفكر الإسلامي والمستقبل، عز الدين توفيق، ضمن مجلة البيان، ع٨٤، س٩، ١٩٩٥، ص:٩٤.

(٤) شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٧٩/٢.

(٥) نحو فهم المستقبلية، آلان تومبسون، ترجمة: ياسر الفهد، ضمن مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، ع١، مج١٥، ١٩٨٧، ص:٢٩٩.

hiragate.com

خالد بن إدريس برادة*

يا رب

يا رب ذكرك في دمي ولساني ... ذكر عظيم يجدد إيماني
خشع الفؤاد بنور ذكرك ساطعا ... أنت النور يشع بالقرآن
هتف الأذان فلبت الروح ... أمر العليم بالسر والإعلان
قد جئت بالشكوى إليك وإنني ... عبد دعاك بأخلص الوجدان
يا راحما كل العصاة ورازقا ... كل الحياة ومغدق الإحسان
يا واهبا للعطايا وعالما ... بالنوايا وماحق الطغيان
غفرانك يا رباه دعَوتُكَ أرتجي ... منك العفو يا واسع الغفران
يا رب عفوك فالنفس أمارة ... بالسوء والفحشاء والعصيان
أنا يا إلهي إن أدلجت فليس لي ... إلا منارك في ظلمة الشطآن
أنا يا إلهي إن رجوتك فليس لي ... إلا نجواك يا عالما بجناني
يا رب عفوك إني ذاكر ... نعماك من خير ومن إحسان

(*) شاعر وأديب مغربي.

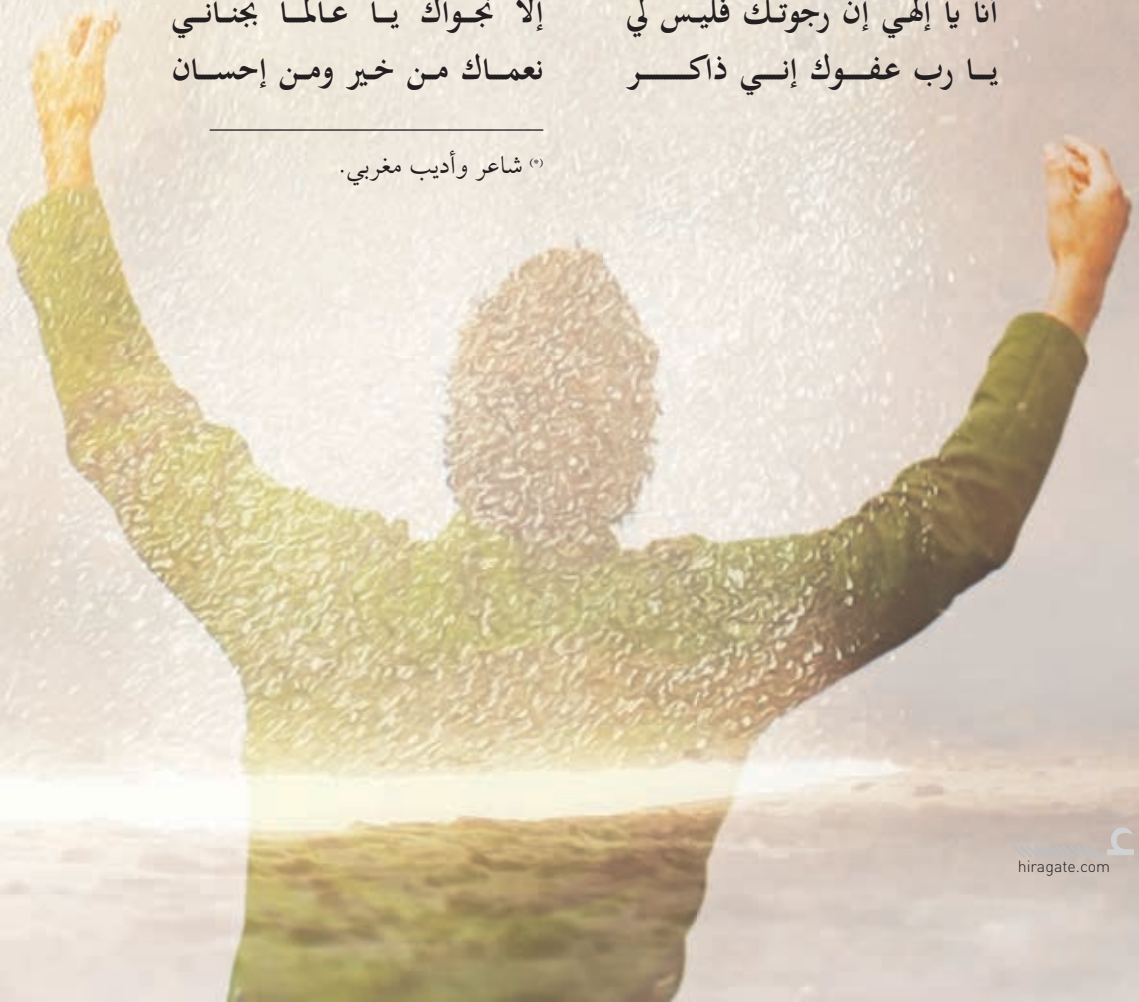

أ.د. عرفان يلماز*

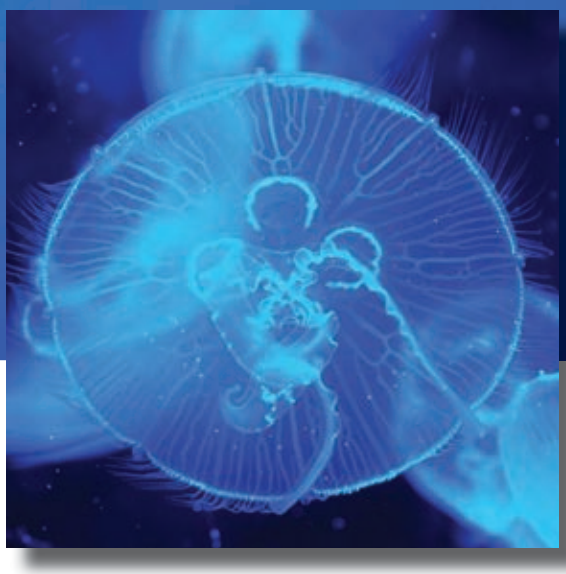

قنديل البحر
يكشف عن أسراره

مرحبا عزيزي الإنسان.. قبل البدء بالحديث معك أريد أن أشكو المشرفَ على هذه السلسلة من المقالات؛ لقد نَبَت الشَّعْرُ على لساني وأنا أحاول إقناعه بأني لست كيسًا شفافًا أو قرصًا، إنما حيوان كباقي الحيوانات وُهبتُ روحًا وكُلّفتُ بمهام عديدة في هذه الحياة، وبالتالي أستطيع أيضًا التحدّث عن نفسي.. أرجوك قلْ له أنْ لا يؤخرني مرة أخرى، ولا يزيد شوقي إليك أكثر من اللازم. ولكن لا بأس، عفا الله عمّا مضى، إني سامحته. والآن، دون مضيعة للوقت ما رأيك أن أبدأ بقصتي في هذه الحياة، وأكشف لك عن عجائب خلْقي مثلما فعل مَن سبقني من أشقائي الحيوانات؟

تصميم متميز وهندسة غريبة

يسمّيني الناس "قنديل البحر" (Jellyfish)، لأن تصميم جسمي وهندسته يختلف كثيرًا عن باقي الحيوانات ما عدا الاسفنجيات والمشطيات.

يتكون جسمي من طبقتين بدل الثلاث طبقات الموجودة عند الحيوانات الأخرى؛ بمعنى أنه عندما تبدأ البويضة المخصِبة وحيدة الخلية بالتطور إلى جنين لدى جميع الحيوانات الفقارية ومعظم اللافقاريات، سرعان ما تنشأ لها -قبل كل شيء- ثلاث طبقات خلوية، كلُّ واحدة منها تختص بإنشاء عضو من الأعضاء وتعدُّه للمهمة التي سيقوم بها مستقبلاً. مثلاً، تقوم خلايا الإكتوديرم (Ecto-derm) التي تكسو سطح الجسم، بإنشاء البشرة والجهاز

تتوزع عيون قنديل البحر كبُقَع صغيرة على أطراف جسمه، مما يمنحنه زاوية رؤية تبلغ ١٨٠ درجة مئوية. هذه العيون المستقبِلة للضوء والمصفوفة على شكل دائرة بانتظام، موصولة ببعضها البعض بشبكة عصبية مشتركة، الأمر الذي يتيح لقنديل البحر معرفة كل التغيرات الضوئية.

العصبي، وتقوم خلايا الميزوديرم (Mesoderm) التي تقع بين الطبقتين، بإنشاء عظام الجسم، وخلايا الإندوديرم (Endoderm)، بتبطين الأنبوب الهضمي.

ما أريد قوله هو أن جسمي خُلق من طبقتين خلويتين بدلاً من ثلاث طبقات، أي لم يضع لي خالقي الطبقة الوسطى (الميزوديرم) التي تنمّي معظم الأعضاء، وهذا يعني أني لا أملك الأنسجة والأعضاء التي تشكّلها هذه الطبقة، ولكن عُوِّضتُ بدلاً من ذلك بمادة شبيهة بالجيلاتين بين بشرتي الخارجية والداخلية.

نسبة الماء في جسمي يصل إلى ٩٧٪، وهذا بطبيعة الحال يُكسبني صورة شِبْه شفافة تتيح للناظر أن يرى أعضائي الداخلية وقنواتي الشعاعية بكل سهولة، أو أن يرى حتى الأسماك التي تناولتُها كغذاء.

لقد خُلقتُ للعيش في البحار، وإذا قمتم -أنتم البشر- بإخراجي من بيئتي البحرية، أتحول إلى هلام وأموت مباشرة، والسبب عدم احتواء جسمي على هيكل عظمي أو غلاف خارجي مثل الجلد لديكم ولدى الكائنات الأخرى. ولكن هل يُعتبر هذا نقصًا فيّ؟! بالطبع لا.. فأنا سعيد جدًّا من بساطة هذه الحياة وخفّتها، وراضٍ بما قسم لي ربي من قِسمة.. يكفي أنْ وهبني حياة زاخرة بالجمال، وأراني كنوزًا في البحار لم يرها كثير من المخلوقات. ثم هل نسيتم أن خالق هذا الكون منزَّه عن النقصان؟ أو هل نسيتم أنه هو الخبير الذي زيّن كل نوع من الحيوانات بأعضاء تتناسب مع ظروف البيئة التي يعيش فيها؟ إذا نسيتم أنتم أيها البشر، فنحن الحيوانات لم ننس.. ورضينا كل الرضى بقسمة ربنا لنا.. ثم ليس من الضروري أن تكون لنا -نحن القناديل- عيون مثل عيونكم، إنما يكفينا عضو واحد يستقطب ما نحتاجه من الضوء والنور.

رؤية بلا عيون

ربما العين بالنسبة لكم ضرورية لا غنى عنها، ولكن هذا لا يعني أن تقللوا من شأني وقيمتي، لقد عوَّضني ربي بعضوٍ كَوَّنه من خلايا جاذبة وأصباغ جامعة للضوء يقوم مقام العين. ثم ليس كلنا بلا عيون؛ بل هناك نوع اسمه "قنديل البحر المكعب" (Cubomedusae) وُهب عيونًا داخل حفرات صغيرة مزوَّدة بعدسة وقرنيّة -مثل الكاميرا تمامًا- يرى بدقة فائقة. نعم، أتمتع بمواد صبغية تم توزيعها بين الخلايا. والمستقبِلات الضوئية بالنسبة لي هي خلايا عصبية خاصة تتكوَّن من قطبين؛ القطب الأمامي لهذه الخلية حساس للضوء، وأما القطب الخلفي فهو صلة الوصل بين الخلايا العصبية الأخرى وهو ما يمكّنني من التفاعل مع المؤثر الضوئي. ثم إن كل محور عصبي يخرج من المستقبلات الضوئية، يلتقي بالمحاور العصبية الأخرى ليشكِّل العصب البصري.

عيوني الصغيرة الشبيهة بالبقع الصغيرة، تتوزَّع بانتظام على أطراف جسمي الشبيه بالمظلّة أو الجرس، وهذا

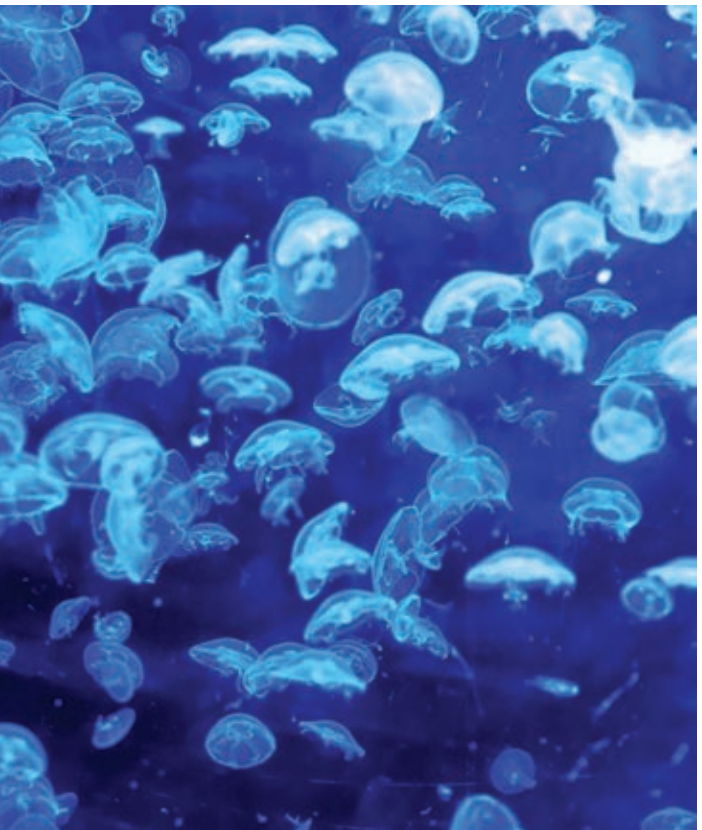

يمنحني زاوية رؤيةٍ تبلغ ١٨٠ درجة مئوية. وبالتالي إن عيوني المستقبِلة للضوء والمصفوفة على شكل دائرة، موصولة ببعضها البعض بشبكة عصبية مشتركة، الأمر الذي يتيح لي معرفة كل التغيرات الضوئية؛ لأن الضوء مهم بالنسبة لي، ولأن مراحل الإنجاب كلها لديّ متعلقة بمدة الضوء الزمنية وشدته. هذا وتبعًا لانخفاض الضوء تدريجيًّا، ينبع فرط استقطاب (Hyperpolarization)، وتبعًا لارتفاعه ينبع إزالة استقطاب (Depolarization)، وعبرهما يتولد التيار الكهربائي لديّ. ولكن عند اللافقاريات يحدث فرط الاستقطاب فقط، وعند الفقاريات إزالة الاستقطاب فقط، بينما نحن قناديل البحر نتمتع بالاثنين معًا.

بعضنا يملك عيونًا غريبة للغاية في تركيب عدستها؛ وبما أن معامل الانكسار يتدرج من جهة إلى أخرى، وأن الصورة تتشكّل خلف الشبكية، فإن الصورة تكون أمامي ضبابية، وهذا -بطبيعة الحال- يسبب لي رؤية الأجسام الكبيرة والهادئة، وتجاهل الكائنات الصغيرة الجارية مع التيارات المائية.

تَذكر بعض المصادر أننا نتنوع إلى ٦-٧ آلاف نوع، وبعض المصادر الأخرى تشير إلى أن أنواعنا تصل إلى نحو ١٠ آلاف نوع. حجم الجسم لأصغر أنواعنا يبلغ ١٢ ملم، وحجم الجسم لأكبر أنواعنا إلى مترين. ولا بد أن تعلم أن الفتحة الواسعة الموجودة في أسفل جسمي

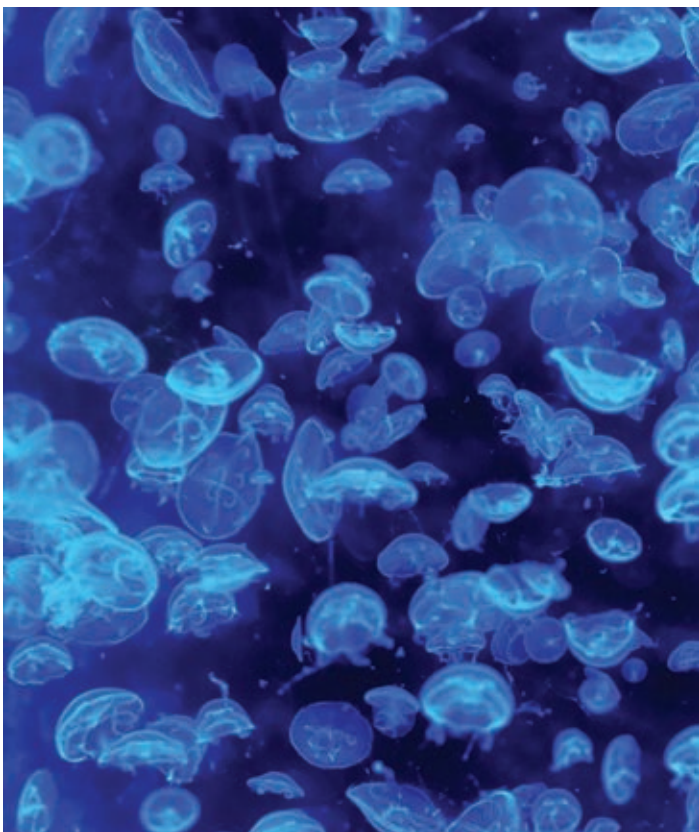

لقد كُسيتْ لامسات قنديل البحر بمئات الكبسولات المتفجرة المسمومة، داخل كل كبسولة خيوط طويلة أنبوبية الشكل، وبمجرد لمس اللامسات تنفجر هذه الكبسولات مثل القنبلة المسحوب دبوسها، لتنغرس مئات الخيوط السامّة في جلد مَن قام بلمْسه فيصاب بالشلل.

الشبيه بالقبة، تقوم بدور الفم والشرج في آن واحد.

جسم بسيط ومعقّد

إذا كان الجهاز الهضمي لديك عزيزي الإنسان على شكل أنبوب، فإنه لديّ على شكل كيس ذي فتحة واحدة يسمّى "التجويف الهضمي". تتزيّن هذه الفتحة الواسعة بقنواتٍ شعاعية تمتد نحو الأطراف بتناسق عجيب مثل أسلاك المظلة تمامًا. لم يُخلق لي كُلْية، الأمر الذي يدفعني إلى استخدام طريقة النشر عند طرْح غاز الأمونيا عن سطح جسمي.

إن الكثافة داخل جسمي متساوية مع كثافة ماء البحر، وهذا بدوره يسهّل عليّ التوازن عند السباحة والحركة. ثم إني لا أحتاج إلى الأكسجين كثيرًا؛ وذلك لعدم وجود أي نشاط أيضي في الهلام المتوسط لديّ. لذلك فإن عملية النشر التي تتم عبر خلايا البشرة من الخارج، وخلايا الأديم الباطن التي تكسو التجويف الهضمي من الداخل، تلبي حاجتي إلى الأكسجين بالقدر الكافي.

هذا وإن التجويف الهضمي لديّ يعمل كخزّان؛ إذ يحتفظ بالأغذية التي تدخل إليه، ثم تُحطَّم هذه الأغذية عبر الأنزيمات، ثم تُمتَصّ من قِبل الخلايا الموجودة في جدار التجويف الهضمي. ثم يتم توزيع الأغذية الذائبة والأكسجين، إلى كل أطراف جسمي من خلال القنوات المتصلة بالتجويف الهضمي.

عدد الأيدي لديّ هي أضعاف الرقم ٤ أو الرقم

٨ (٨-١٦)، وكلها متموضعة على حافّات التجويف الذي يعمل كفم وشرج في عين الوقت. أستخدم هذه الأيادي من أجل القبض على الفريسة. وكذلك أملك عددًا كبيرًا من اللامسات التي تتدلى من أطراف جسمي الشبيه بالقبة، كما يصل طول هذه اللامسات عند نوعنا "الحَوصلاء" (Physalia) إلى ٥٠ مترًا.

آلة صيد بديعة الصنع

لا بد من الإشارة إلى أن الأيدي لديّ واللامسات، مكسوّة بمئات الكبسولات المتفجرة، وقد أستخدمها كسلاح أدافع به عن نفسي وأحميها من المخاطر. تسمى هذه الخلايا المصنوعة بدقة فائقة بـ"اللاسعة" (Cnidocyte)، وهي كالقوس المشدود جاهزةٌ للانفجار في أي لحظة، إذ يوجد داخل كل كبسولة من هذه الكبسولات خيوط طويلة أنبوبية الشكل، وبمجرد لمْس الأيدي، تتوتر مباشرة النتوءاتُ الشبيهة بالشعيرات والموجودة على أطراف الكبسولات وتتصلّب، ثم تنفجر الكبسولات مثل القنبلة المسحوب دبوسها، لتنغرس مئات الخيوط الشائكة في جلد مَن قام بلمْسي. وأنصحك عزيزي الإنسان -لأنك غال عليّ- ألاّ تلمسني وألا تقترب مني كثيرًا، لأن هذه الخيوط الشائكة، مسمومةٌ، وأخشى أن تودي بحياتك لا سمح الله. لكن اطمئن، ليست كل أنواعنا خطيرة إلى هذه الدرجة، بل هناك مَن يكون سمّه خفيفًا يؤدي إلى الحكّ وبعض الجروح البسيطة فقط.

وزن خفيف وتوازن دقيق

لعلي لم أُوهَب أنسجة عضلية مثلكَ أيها الإنسان، ولكن عوضًا عن ذلك، كُسِي جسمي ببعض الخلايا القادرة على الانكماش (Myoepitel) مثل الحزام المطاط تمامًا، وعن طريق ذلك أتمكّن من الحركة.

لتوفير الطاقة وعدم هدرها، أقوم بطريقتين مختلفتين خلال السباحة والحركة العمودية؛ أما الطريقة الأولى فهي تحريك أطراف جسمي المظلّي، وأما الطريقة الثانية فهي دفْع المياه الذي أُدخله التجويفَ الهضمي إلى الخارج بقوة من فتحة الفم، ليدفعني بالاتجاه المعاكس ويمكّنني من السباحة وقطع المسافات بسهولة. وهذه العملية تتحقق بواسطة أجهزة التوازن الموضوعة بشكل دقيق على حافّات جسمي، وهي التي تمكّنني من التوازن الذي لا أعرفه كيف يكون، لأني -بصراحة- لا أعرف الحساب ولا أفهم فيه أبدًا، إنما في تنقّلي من مكان إلى آخر، أعتمد فقط وبسوق إلهي، على المد والجذر والتيارات المائية.

عملية التلقيح والإخصاب

من السهل جدًّا أن ترى غددي التناسلية الأربعة من الخارج. وأما التلقيح والإخصاب لديّ فيتم على شكل مراحل؛ إذ يخرج البيض -البالغ حجمه النصف ملليمترًا- والحيوانات المنوية من فتحة فمي إلى الماء، ثم يبدأ هذا البيض بالنمو لتظهر اليرقة المهدبة بعد الإخصاب فوق بعضها البعض، بعدها تتحول هذه اليرقات إلى سليلة (Polyps) بفم ولامسات متموضعة على حافة السطح العلوي لفتحةً الفم، وبعد فترة معينة من الزمن يتم التحوّل إلى قنديل يسبح ويتحرك في الماء كيف يشاء.

يتغذى كبارنا على السمك واللافقاريات؛ حيث تقوم بلدغ الفريسة عن طريق الكبسولات المتفجرة، وهذا اللدغ يسبب التخدير والشلل في جسم الفريسة، لتكون طعامًا سائغًا شهيًّا تتغذى عليه وتواصل حياتها في هذه الدنيا.

يحذِّرني السيد المشرف بانتهاء الوقت المخصص لي، واكتمال الصفحات المحددة لقصتي. أسرار كثيرة كان عليّ أن أحكيها، ولكن لا بأس، لعل ربي يجمعني بك في يوم من الأيام لتكملة البقية.. حتى ذلك الحين، أرجو أن تتأمل جيدًا فيما حكيتُه لك، وتحاول فهم حقيقة الوجود الذي أنت جزء منه. مع السلامة. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiragate.com

مصطفى البعزاوي*

الاجتهاد الفقهي في حماية البيئة
الهواء نموذجًا

إن الناظر في كتب النوازل الفقهية عمومًا، والنوازل المرتبطة بالحفاظ على البيئة، يدرك قيمة الفقهاء العلمية، ويتجلى ذلك أساسًا من خلال اجتهاداتهم في ثنايا الفتاوى المعروضة عليهم، لا سيما ما يتعلق بالمحافظة على البيئة عمومًا، وعلى مكونها الأساس الهواء الذي بدونه لا تستقيم الحياة، ولهلكت كل الكائنات الحية، ولتعطلت جوانب مهمة من هذا الكون.

ومن هنا، فإن أي تلوث للهواء يُعد خرقًا للمنظومة البيئية، وأمرًا خطيرًا يؤثر على صحة الإنسان والحيوان والنبات، وما يشهده العالم من أخطار تلوث الهواء دليل على خروج الإنسان عن سنن الله الكونية التي أمرت بالإصلاح بدل الإفساد، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾(الأعراف:٥٦).

وإن تلوث الهواء من أخطر المشاكل التي تهدد البيئة في مختلف تجلياتها، خاصة في عصرنا الحالي الذي أصبح يومًا بعد يوم تزداد فيه ملوثات الهواء، نظرًا لكثرة المصانع المتنوعة التي تؤثر سلبًا على صحة الأفراد والمجتمعات، وتتعدى الحدود الجغرافية.

وتأسيسًا على ما سبق، نجد فقهاء الغرب الإسلامي أبدعوا باجتهاداتهم في مجموعة من المسائل التي تحافظ على الهواء نقيًّا، إيمانا منهم أن حمايته من الملوثات. ومن وجهة المنظور الإسلامي، يعدّ فرض عين على كل مسلم ومسلمة، لما فيه من المحافظة على

مقاصد الشريعة الإسلامية، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل.

وبالتأمل في كتب النوازل، نجد عدة مسائل توحي إلى اهتمام فقهائنا بالحفاظ على الهواء من التلوث، وكمثال على ذلك سأتناول ما تعكسه "دور الدبغ" وغيرها من الآثار السلبية وفق النحو الآتي:

عنوان النازلة: تلوث الهواء بدور الدبغ

نص النازلة: سئل ابن زيتون عن مسجد قديم الموضع مخرب ما حوله من الديار، فأحدثت بجوار المسجد دور للدبغ، ثم قام بعد زمان محتسب وقطعها ونقلها إلى خارج البلد، ثم أراد بعض أرباب الدور إعادتها للدبغ، فأنكر عليه من أراد الاحتساب في حق المسجد لما ينالهم من نتن الدبغ وتغيير مائه وما يخلفه من نجاسة مع تقدم بناء المسجد، وحدوث ما ذكر أهل المسجد، فأجاب: ليس لهم إعادة الدور للدبغ، إذا كان ريح الدبغ ونتنه مؤذيًا لأهل المسجد، ولقد تقرر النهي من دخول المسجد لأكل الثوم على الريح المنتنة من الضرر.

موضوع النازلة: منع دور الدبغ بجوار المساجد لما ينتج عنها من أضرار وملوثات.

فقه النازلة: تشير النازلة إلى قضية من الأهمية بمكان، تتجلى في بعض المكونات الملوثة للهواء قديمًا، وهي إحداث دور للدبغ بجوار المسجد.

ولمركزية وحضور المهتمين بشأن البيئة، يقوم المحتسب بقطع ونقل معمل الدبغ خارج البلد، لأنها تنتن الأهالي المجاورة لدار الدبغ، خاصة رواد المسجد، تغليبًا للمصلحة العامة على الخاصة، ومن القواعد المقاصدية التي راعاها مفتي النازلة، أنَّ "درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح".

ومن الأدلة الشرعية أيضًا التي وظفها هي القياس، حيث قاس الرائحة المنتنة على ريح الثوم، والتي نهى النبي ﷺ آكلها من الاقتراب من المسجد. وفي هذا يقول النبي ﷺ: "من أكل من هذه الشجرة (أي الثوم) فلا يقربن مسجدنا" (رواه البخاري).

وإذا كان النهي عن أكل الثوم لما يلحقه من ضرر معنوي على المصلين وفضاء المسجد على حد سواء، فإنه أولى وأحرى منع ملوثات الهواء، كما هو الشأن لمعمل دار الدبغ وغيره من المعامل التي استحدثت في عصرنا الحالي.

ويمكن أن نقيس على المسجد أيضًا في عصرنا الحالي، حين يتعلق الأمر بوجود بعض المراكز الصحية والمدارس، وغيرها من التجمعات السكنية.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "فلا يقربن ولا يصلين معناة يدل على أن مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم، والولائم وما أشبهها، لا يقربها من أكل الثوم، وما في معناه مما له رائحة كريهة تؤذي الناس".

وفي هذا الاتجاه، سُئل مطرف (ت ٢٢٠هـ)، وابن الماجشون (ت ٢١٣هـ)، والأصبغ (ت ٢٢٥هـ)، عن حكم شخص أقام مدبغة في بيته تنبعث منها الروائح الكريهة فتؤذي جيرانه وتسبب لهم الضرر، فأجمع كل الفقهاء الثلاثة على حق جيرانه في إيقافه، وحكموا بإغلاق مدبغته لما تسببه روائحها من ضرر للجيران.

ويتساوى في هذا الحكم، حفر مرحاض أو مصرف غير مغطى، وكل ما تنبعث منه الروائح الكريهة، مما استجد في واقعنا الحالي.

ومن أشكال تلوث الهواء قديمًا، إحداث الحمام على الديار، وجاء جواب النازلة متضمنًا ما يلي:

إذا كان الأمر على ما ذكرته في ذلك، فله أن يمنع الباني للحمام من بنائه قبل أن يبنيه وبعد أن يبنيه[1].

فقه النازلة: قال فقهاء المالكية: "ووجه الضرر فيما ذكر، هو الدخان الذي يحصل من الفرن والحمام، فيدخل على الجيران في دورهم ويضرهم، وهو من الضرر الكبير المستدام، وما كان بهذه الصفة منع إحداثه على من يستضر به إذا شهدت البيئة بأنه من الضرر"[2].

وفي هذا المعنى أشار ابن عاصم -رحمه الله- في "تحفة الأحكام" قائلاً:

"ومحدث ما فيه للجار ضرر محقق يمنع من غير نظر، كالفرن والباب، ومثل الأندر، أو ما له مضرة بالجدر، وما ينتن الريح يؤدي يمنع فاعله بالدبغ مهما يقع. وفي السياق نفسه ذهبت الحنابلة والظاهرية، إلا أن فقهاء الحنفية قالوا: لا يمنع إلا إذا استمر في إجراء الدباغة في داره وتأذى الجيران من

hiragate.com

ذلك، أما إذا أجرى هذه الصنعة نادرًا فلا يمنع"[٣].

وقد ورد عن الشافعية، أن إزالة الضرر عن هواء شوارع المسلمين مفوض للحاكم، قالوا: لأن الهواء لكافة المسلمين، فوجب تفويض أمره إلى نائبهم وهو الحاكم لإزالة الضرر عنهم.

ولتفعيل قاعدة "ارتكاب أخف الضررين" قال بعض الفقهاء: "إن أمكن قطع الدخان مع بقاء الفرن قطع الضرر، وذلك بأن يجعل أنبوبًا في أعلى الفرن يرتقي فيه الدخان ولا يضر بالجار.

وفي هذا جمع بين مصلحة صاحب العمل بالقيام بعمله، ومصلحة الجار بدفع الضرر عنه، والمقصود هو دفع الضرر عن الجار، فإذا ارتفع الضرر على الدوام، ولم يكن في إقامة الفرن أو المطبخ أو ما يشبههما ضرر على جيرانه من أهل الدور أو السوق -بأي طريقة كانت كالطريقة المتقدمة أو غيرها- لم يكن لأحد منع صاحب الفرن أو غيره من هذا العمل.

ورغم أن حق الملكية يبيح للأفراد الاستفادة والتصرف فيما يتقرر عليه حق الملكية، إلا أن ذلك مقيد بالانتفاع بما لا يخالف الشريعة والقوانين والأعراف.

وبناءً على هذا، فإنه إذا ترتب على تصرف الجار في ملكه أذى أو ضرر للجيران بتلويث الهواء بالدخان أو الروائح الكريهة، فإن للجار منع جاره حينئذ من هذا التصرف، وله الحق في رفع أمره للقضاء عند امتناعه من إزالة هذا الضرر، وإلزامه بالضمان لو تلف بسبب هذا التلوث المعتدي فيه، إنسان أو مال.

والملاحظ في موضوع هذه النوازل عمومًا، أنها من نوع التلوث الصناعي الذي ينتج عن فعل الإنسان ونشاطه أثناء ممارسته لأوجه حياته المختلفة، من الصناعة والزراعة وغيرها، وفي استخدامه المتزايد لمظاهر التقنية الحديثة ومبتكراتها المختلفة، بحيث يجد هذا النوع من التلوث مصدرَه فيما تنفثه المصانع وعوادم السيارات والمبيدات، والضوضاء والفضلات الصناعية والزراعية المنزلية وغيرها.

ومن خلال ما سبق، فوجود المصانع والمعامل التي تسبب تلويثًا للهواء والتي تلحق الضرر بالمساكن المجاورة لها، ممنوع شرعًا استنادًا إلى مجموعة من

إن أي تلوث للهواء يُعد خرقًا للمنظومة البيئية، وأمرًا خطيرًا يؤثر على صحة الإنسان والحيوان والنبات، وما يشهده العالم من أخطار تلوث الهواء، دليل على خروج الإنسان عن سنن الله الكونية التي أمرت بالإصلاح بدل الإفساد.

القواعد الفقهية والمقاصدية التي منها:

١- قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" المأخوذة من حديث رسول الله ﷺ.

وتعتبر هذه القاعدة من التدابير الوقائية الاحترازية في معالجة قضايا البيئة في الإسلام. والضرر هو أن يدخل المرء على غيره ضررًا بما ينتفع هو به، والضرار أن يدخل على غيره ضررًا بلا منفعة له به.

وعليه، فالضرر والضرار منهي عنهما، وبالتالي فالقاعدة تمنع أي اعتداء على مكونات البيئة مما يسبب الاختلال البيئي، ويفوت المصالح المتوخاة والمنتظرة من الموارد الطبيعية. وهكذا نخلص إلى أن الإسلام يمنع كل أوجه تلويث البيئة واستنزاف مواردها، أو تعطيل الاستفادة منها[٤].

وقد رتب العلماء بناء على هذا الحديث قواعد جليلة في ضبط الضرر وأهمها:

٢- قاعدة "الضرر يزال": ومن المسائل البيئية التي تندرج تحت هذه القاعدة، ما ذكره ابن قدامة في سياق ذكره لما يمنع المسلم من التصرف فيه إذا أحدث ضررًا لجيرانه، نحو أن يبني حمامًا بين الدور، أو يفتح خبازًا بين العطارين، أو يجعل دكان قصارة (أي صناعة) يهز الحيطان ويخربها، أو يحفر بئرًا إلى جانب بئر جاره يجتذب ماءها.

٣- قاعدة "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح": فإذا كان للمالك أن يستخدم ويتصرف بملكه كما يشاء، فيجب ألاّ يؤدي ذلك إلى ضرر أو مفسدة لغيره؛ فمثلاً من يستخدم المبيدات الكيميائية لحماية محصولاته، أو يشغل مصنعًا تصدر عنه أصوات مزعجة، أو ينفث أبخرة أو غازات سامة، يجب أن يتم منعه من ذلك، أو

hiragate.com

اتخاذ تدابير تضمن عدم الإضرار بالغير[٥].

٤- "يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام"، وانطلاقًا من هذه القاعدة، يمنع إقامة مصنع للإسمنت -مثلاً- وسط حي سكني، منعًا للضرر الذي يعود على أهل هذا الحي[٦]. وغيره من المعامل الحديثة المخصصة للنجارة والحدادة وصناعة السيارات والمهن الأخرى التي تعكس آثارًا سلبية على صحة الإنسان.

٥- "يختار أهون الشرين أو أخف الضررين": فمثلاً إذا تعذر نقل النفايات المنزلية إلى مناطق غير مأهولة بالسكان، وأريد حرقها للتخلص منها، فيمكن أن يجرى ذلك قرب المناطق البعيدة نسبيًّا ذات التعدد السكاني الأقل، بدلاً من حرقها في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية[٧].

وفي هذا الإطار، جاء النص القانوني المغربي من مدونة الحقوق العينية، يواكب رؤية الشريعة الإسلامية في المادة ٧٧، حيث ورد فيه ما يلي:

"يجب أن تقام المصانع وغيرها من المحلات المضرة بالصحة أو الخطرة أو المقلقة للراحة، بالمواصفات وعلى المسافات وداخل المناطق المنصوص عليها في القانون، كما يجب على مالكيها اتخاذ الاحتياطات اللازمة للحفاظ على البيئة والحيلولة دون الإضرار بأي أحد، مع مراعاة القوانين الجاري بها العمل في هذا الباب".

وهذه التدابير، تؤدي وظيفة جيدة في الحفاظ على البيئة وعلى أساسها الإنسان، لأن تلوث الهواء يحمل الكثير من الفيروسات والبكتيريا والفطريات الخطيرة، التي تلحق بالإنسان العديد من الأمراض الجسدية والنفسية.

ومن خلال ما تقدم نخلص إلى ما يلي:

كان لعلماء الشريعة رؤية مبكرة تجاه الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث، وجعلوا ذلك من واجبات الدين وفرائضه.

لم يكن اهتمام علماء الشريعة بملوثات الهواء العظمى، التي تعتبر طامات كبرى، والتي إذا فتكت فإنها تفتك أممًا لا جماعات فحسب، بل كان اهتمامهم بما يؤدي إلى مجرد ضرر بسيط لا يتعدى فردًا أو مجموعة أفراد، فهم لم يبحثوا موضوع التلوث بعدما استفحل الأمر وصار مشكلة إنسانية، وإنما عالجوا الأمر في أبسط صوره وفي أقل مراتبه.

ومن هنا يتبين أن الفقهاء قديمًا منعوا في فتاويهم وأقضيتهم، إقامة دور الدبغ، والحمامات، وما شاكلها من المصانع الأخرى التي تلحق الضرر بتلوث الهواء. والأدوار التي كان يقوم بها المحتسب -كما مر توضيحه- في مقاومة كل ما يلوث البيئة عمومًا، خاصة ما يتعلق بالهواء، إضافة إلى ذلك دور الأطباء وعلماء الاجتماع الذين أسهموا بدورهم في الحفاظ على الهواء، من خلال آرائهم الجيدة التي تكمل الصورة الإيجابية في الحفاظ على الهواء، فما أحوجنا اليوم من اتخاذ تدابير وقائية، خاصة أمام ما تشهده المصانع والمعامل من انتشار كبير، تفقد للهواء ميزته الإيجابية، وتحوله للأسف إلى مشاكل خطيرة تقتل الإنسان بالدرجة الأولى وباقي الكائنات الأخرى. ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية / المغرب.

الهوامش

(١) مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، للقاضي عياض، ص:٩١.

(٢) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، للشيخ أبي عبد الله محمد بن فرحون اليعمري، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م. ٢٥٨/٢.

(٣) تحفة المحتاج بشرح المحتاج لأحمد بن حجر الهيتمي، دار إحياء التراث، بيروت لبنان ١٩٩/٥.

(٤) حماية البيئة الطبيعية في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية مقارنة، لصفاء موزة، دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م ص:٢٨٠.

(٥) مبادئ حماية البيئة في القوانين الوضعية والشريعة الإسلامية، أحمد عبد الكريم سلامة، بحث منشور في مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، كلية الحقوق، جامعة المنصورة، العدد السابع عشر أبريل ١٩٩٥م. ص: ٣٨.

(٦) الإسلام وحماية البيئة، للدكتور محمود صالح العادلي، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، الرياض، العدد٢٣، السنة السادسة، ص:٣٤.

(٧) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث، للدكتور عدنان أحمد الصمادي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة السابعة عشرة، العدد:٥١، ص:٣٣١.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

صناعة الطفل المبدع

يعترف الباحثون اليوم بصعوبة الوقوف على تعريف موحد للإبداع، ولعل أول أوجه هذه الصعوبة تكمن في درجة التعقيد التي ينطوي عليها الإبداع، مما دفع "ماكينون" للاعتراف بأن الإبداع لا يمكن وصفه بتعريف محدد، على اعتبار أنه ظاهرة متكاملة ذات وجوه متعددة، إلا أن معظم الباحثين يذهبون إلى عدِّه ضربًا مفارقًا من ضروب الذكاء، إذ إن الإبداع يتطلب في أبسط أشكاله نوعًا من تجاوز المألوف.

فإذا كان الذكاء يعرّف بأنه القدرة على حل المشكلات، فإن الإبداع يتجاوز هذه القدرة إلى قدرة أخرى ترقى إلى استبصار طرق ومناهج جديدة في إيجاد الحلول على نحو غير معروف من قبل. كما وضع البعض شروطًا أخرى للتفكير الإبداعي، ومنها أن يتضمن هذه التفكير قدرًا من الدافعية والحماس لتحقيق الأهداف، وإيمانًا عميقًا بجدواها العملية.

ولا يقتصر الإبداع على مجال واحد من مجالات التفكير، بل يتعداه أيضًا إلى مجالات الفن والموسيقى والجمال التخيلي، إذ يتميز المبدعون عادة برهافة الحس، والقدرة على الإدراك العميق لكل ما يدور من حولهم. والإبداع أيًّا كان -فكريًّا أو أدبيًّا أو فنيًّا- يحتاج إلى عوامل مهيئة تساعد على نموه، فهو يتطلب تربة خصبة وصحية، لتنبت فيها بذوره التي لو لم تجد رعاية وعناية خاصة فلن يُكتب لها الحياة. فالمبدع بحاجة إلى أجواء نفسية صحية تتناسب وصفاته الشخصية، من رهافة الحس وسعة الخيال والذكاء والحرية، فلا يعقل أن يحيا المبدع في بيئة تسودها العقد النفسية، والضجيج والأمراض النفسية، ويسيطر عليها الروتين، والمنافع الشخصية، والمحسوبيات، وتسودها الأحقاد.

ونؤكد هنا على شخصية المبدع؛ إذ المبدع من طراز خاص، يمتاز عن غيره من البشر بصفات خاصة تجعله جديرًا بأن يكون مبدعًا، وأولى هذه الصفات الإحساس المرهف، ذلك الإحساس الذي يجعله يشعر بما لا يشعر به الآخرون من غير المبدعين، وينتبه إلى ما لا ينتبه إليه غيره. ويتصف المبدع -كذلك- بالخيال الواسع والذكاء والحرية، بالإضافة إلى ما حباه الله به من موهبة الإبداع.

فالخيال الواسع يمكنه من اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء أو العناصر لم تكن موجودة من قبل، كما يساعد هذا الخيال النشط على تصميم نماذج جديدة، وصياغة أطر مبتكرة، ولا يتأتى له ذلك إلا بالذكاء والفطنة. وباختصار، فالمبدع شخص عبقري من طراز خاص، إذن فالمبدع شخص مرهف الإحساس متمرد على واقعه، يدفعه طموحه وخياله الواسع إلى ارتياد آفاق جديدة وإنتاج شيء جديد مبتكر، بما وهبه الله من موهبة وذكاء وفطنة.

إن المبدع في الأصل شخص موهوب، لكنه لا بد أن ينمي موهبته ويصقلها بالتجارب، وهو في حاجة ماسة إلى حرية حقيقية، لينفلت من إسار الواقع والتقليد، ويحلق إلى آفاق جديدة، وليبحر صوب المجهول، ولذا فإن التقاليد الصارمة، والموروثات النمطية والحدود المصطنعة والروتين، كلها مواد سامّة تصيب المبدع في مقتل وتقضي على إبداعه، بعد أن تكبله وتسجنه وتشل تفكيره وخياله.

وما من شك في أن دور الأهل هام وحيوي في اكتشاف مواهب أطفالهم في مرحلة مبكرة من عمرهم ورعايتهم لها وتنميتها، وهناك مثالان فقط من أمثلة عديدة أُذكّر بها الأهل بدورهم في صنع العباقرة والمدعين ورعايتهم؛ وهما الموسيقي العبقري "موتسارت" والعالم الفذ "آينشتاين" الذي قامت اختراعات القرن الماضي على اكتشافاته. فقد لاحظ والدا الطفل "موتسارت" أن ابنهما البالغ الثالثة من عمره، وأخته التي تكبره والتي توفيت فيما بعد، يعشقان الموسيقى، فماذا فعل الأب الذي تعلم في المدارس حتى سن العشرين، وتخرج في المدرسة ليعمل موسيقيًّا؟

بدأ يعلم أولاده العزف على البيانو، وعندما بلغ "موتسارت" الخامسة، صحبه أبواه في جولة في أوروبا، وكان "موتسارت" يعزف على البيانو أمام الجمهور في هذه السن الصغيرة، ورفض والده أن يلحقه بالمدرسة العادية حتى لا يقتل موهبته هو وأخته، وحتى عندما مرضت أخته، كان "موتسارت" يدخل عرفته ويعزف أروع الألحان الحزينة ولم يمنعه أبواه أبدًا عن ذلك.

كان "موتسارت" موسيقيًّا موهوبًا، يمتلك كل أدوات الموهبة والتي يمكن أن تجعله موسيقي عصره والعصور التالية حتى يومنا هذا. فقد كان يسمع اللحن أو السيمفونية التي يكتبها في عقله وبداخله قبل أن يخط حرفًا واحدًا منها على الورق. وكانت لديه مقدرة فائقة على تخيّل رد فعل المستمعين، وحالتهم النفسية عند سماع موسيقاه، على الرغم من أنه لم يكن يذكر سوى في موسيقاه فقط، والتي لمست القلوب وحلقت بالأرواح من سحرها وجمالها، ولولا وجود هذا الأب الواعي والأم المتفهمة لـ"موتسارت"، ربما ماتت موهبته بالسكتة القلبية أو بجلطة مفاجئة من أستاذ فاشل في المدرسة لا يعرف قيمة هذه الموهبة ولا يقدرها.

أما المثال الآخر فهو العالم "ألبرت آينشتاين" الذي لم يكن يتوقع أحد يوم أهداه والده "بوصلة" وهو في سن الرابعة من عمره، أن تكون هذه البوصلة هي كلمة السر التي أخرجت ماردَ حب الاستطلاع العلمي بداخله،

hiragate.com

وأن تستحث قدراته ومواهبه على التخيل والابتكار والسباحة مع الخيال، حتى أنه كان يتخيل نفسه بعد أن كبر قليلاً، شعاعًا من الضوء يسير بسرعة الضوء، ثم تخيل ما يمكن أن يراه ويرويه لوالده الذي كان يعمل بائعًا للأدوات الكهربائية ويعيد تركيبها، ويتخيلها بشكل آخر وإمكانيات أخرى.

وعندما بلغ آينشتاين الثانية عشرة من عمره، أهداه عمه كتابًا في الهندسة، وكان ذلك الكتاب بالنسبة له مثل "مصباح علاء الدين السحري" الذي أدخله إلى عالم الرياضيات والحيز والفراغ. ثم أهداه أحد أقاربه الذي كان طالبًا في كلية الطب بعض الكتب الطبيعة لـ"فرويد" "كانت"، فأصبح على الطبيعة وهو عشه الأول والأخير إلى جانب الرياضيات.

وكان "آينشتاين" في ذلك الوقت في المدرسة، إلا أن مدرسيه كانوا يعاملونه على أنه تلميذ عادي أو أقل من المتوسط، باستثناء مادتي الرياضيات والطبيعة التي كان يحصل على الدرجات النهائية. وعندما وصل "آينشتاين" إلى المرحلة الثانوية رأى مدرسوه أنه طالب عنيد وجامح باستثناء مدرسه اليوناني الذي كان يدرس له الفيزياء أو الطبيعة، الذي نصحه بأن يترك هذه المدرسة التي لا تتناسب مع طموحه وقدارته في العالم.

وبعد عام التحق "آينشتاين" بمدرسة أخرى تعتمد على الفهم والرؤية والعقلية أكثر من الحفظ، وبعد عام آخر التحق "آينشتاين" بالأكاديمية متعددة الفنون في "زبورخ"، والتي قبلته فورًا، بناء على اختبارات تم إجراؤها له في الرياضيات والطبيعة. وبدأ يمارس داخل هذه الأكاديمية حرية التفكير والإبداع والتخيل والاختراع وحب الاستطلاع من خلال الإمكانيات المتخصصة الموجودة بها. وأصبح "آينشتاين" أبرز علماء القرن الماضي بعد سلسلة من النجاحات والإخفاقات والصعاب، من خلال الوصول إلى نظرية النسبية وغيرها من الفتوحات العلمية الهائلة. ■

حقيقة الزمن

إلهي المنشأ، كوني المصبّ..
لَوْلَبِيّ المسير، إلى الأبد يسير..
ما هو بالمستدير ولا بخطّ مستقيم..
يصعد تارة وينـزل أخرى..
فحقيقة الزمن لوح المحو والإثبات،
ويمحو الله ما يشاء ويثبت.
***

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

د. محمد جكيب*

أزمة القيم في عصر الإعلام

هل من الممكن تصور حياة الإنسان مفصولة عن الإعلام؟ شدة ارتباط الإنسان المعاصر بالإعلام يؤكد استحالة ذلك، لأن الإعلام هذا الكائن الذي أوجدته الحياة المعاصرة، احتل مكان الصدارة في الحياة، ولم يعد أحد ولا مجال من المجالات في معزل عن تأثيره الإيجابي أو السلبي، والارتباط به من قريب أو بعيد، ولا أحد يجادل اليوم في قدرته الفائقة على تشكيل العقليات وتوجيه الذهنيات. وينبغي التنبيه في هذا المقام على أن الإعلام المقصود هو ذلك المجال المتعدد الأشكال والهيئات وإن ورد بصيغة المفرد، بمعنى أن الإعلام اسم جنس يعم مختلف أنواع سلوك التواصل التي تتخذ من الإنسان غايتها.

صار هذا الكائن المركب الذي ينمو ويتطور بسرعة عجيبة، جزءًا من ثقافة الشعوب والأمم، وصار من المسلَّم أن الأمم التي لا تتوفر على رؤية إعلامية قائمة على أساس ثقافي فكري واضح وجلي، وعلى مرام ملموسة وغايات نابعة من الخصوصية الذاتية، التي تأخذ بعين الاعتبار الثقافة والتاريخ والجغرافيا في بؤرة واحدة، فعاجزة عن إضافة شيء للشخصية الذاتية، بل هي عالة على غيرها من الأمم والثقافات التي تستطيع إبراز وجودها، وتعرف كيفية سبل تسويق ذاتها للغير.

ومن نافلة القول: إن لكل مجتمع ثقافته الخاصة التي تعكس مدى عمقه الفكري ومستواه الحضاري، وتعكس في الوقت نفسه وعيه الجمعي ومدى ارتباط مكونات المجتمع بجذورها الثقافية والفكرية والدينية، العاكسة في الوقت نفسه لمدى وعيها بموقع خصوصيتها الثقافية بين مختلف الثقافات. إن الخصوصية الثقافة هي التي تحفظ للجماعة الثقافية والمجتمع النابع منها، التوازن الضروري، وتضمن سلامة هويته، وتحافظ له على استمرار وجوده، فإذا أُلغيت هذه المقومات، تحولت الجماعة الثقافية إلى كائن ممسوخ يعيش من خلال الآخرين، وإلى مجرد شكل بلا روح، بل تحولت إلى شبح يخشى حتى الأشباح.

يمر واقع الإنسان المعاصر في هذه الأيام بأزمة قيم حادة، وما يزيد من حدة هذه الأزمة هو الإعلام الذي يبدو أنه حصر مهمته، أو أريد لمهمته أن تنحصر في إذكاء نار الأزمات وتوجيه دفتها لأسباب مختلفة غير أخلاقية، هذا في الوقت الذي تؤكد فيه مختلف الأدبيات، أن الإعلام بمختلف وسائطه وسيلة يوظفها الإنسان في تنمية الطاقة الفكرية والإبداعية، هذا هو ما يفترض فيه القيام به، حيث يفترض فيه السعي إلى تغذية روح المجتمع بالأفكار والرؤى الكفيلة بضمان استقرار، وتنظيم قدراتهم، وتطوير مهاراتهم.

التطور الكبير الذي عرفته العلاقات البشرية والطفرة المهمة التي حققها الإعلام ووسائل الاتصال، أوجد بموازاة ذلك منظومة معينة من القيم الإنسانية العامة حسب ادعاء البعض وبغض النظر عن طبيعتها والشعارات التي ترد تحتها، وهل هي قيم مقبولة أم

عندما ينسلخ العلم عن القيم يشيئ الإنسان ولا ينظر إلا في مكونه المادي، فالإعلام المنحرف عن الغايات النبيلة، هو أداة فلسفة الطبيعة في انتزاع الإنسان انتزاعًا من أحضان قيم الخير.

غير مقبولة، وهل بنيت بناء منطقيًّا وحصل حولها الحد الأدنى من التوافق بين مختلف المجتمعات والثقافات والشعوب، وهل عاشت مخاض الولادة الطبيعية أم هي مجرد قيم فرضها طرف ما بالاعتماد على سلطة تدجن القيم وتمسخها؟ وفطرة الإنسان تميل إلى التواصل والتعارف، ولا يمكن تمثل هذا التعارف والتواصل بعيدًا عن القيم والأخلاق، لأنها تمد هذه الحاجة الفطرية بالطاقة اللازمة لحيويتها، وتنير لها الطريق، حتى لا تتحول شيئًا مشوهًا يدعي التواصل، لكنه يرسي قواعد التفرقة والتنازع.

"القيم" جمع "قيمة"، وهي اسم هيأة يدل في الاستعمال العادي على قدر الشيء أو مقداره. والعديد من الفلسفات والمذاهب الفكرية القديمة والحديثة تلح على أهمية القيم في حياة الإنسان، أي على قدر ضروري هو الحد الأدنى الذي يقع وسطًا بين المثالية والغلو أو التطرف، وتلح على حد أدنى منها، إذ لا قيمة لحياة بغير قيم، ولا تستقيم حياة الإنسان بدونها. وفي الوقت الذي تميل فيه فطرة الإنسان إلى التواصل والتعارف والتكامل -كما أشير سالفًا- تميل بعض الأفكار التي قد تتلبس لبوس الدين أو إلى إذكاء نعرة الصراع، فلا عجب أن أريد للعلاقات الإنسانية في الوقت الراهن أن تكون قائمة على الصراع، ولا عجب أن تكون صراعات الإنسان أخلاقية، وأن يكون الإعلام الوسيط المؤجج لجمار هذا الصراع.

للقيم والأخلاق سلطة معنوية لا تنكر، وهي تستمد سلطتها من قوة المرتكزات التي تقوم عليها، وسمو المرامي والأهداف التي تريد الوصول إليها، إذ كلما كانت هذه المرتكزات المحركة جلية كلما كان للقيم سلطة تمارسها وتطبع بطابعها منظومة التفكير داخل المجتمع. فإذا سادت قيم الخير ساد الانسجام

hiragate.com

والتوافق، وارتدى الواقع رداء جنس القيم السائدة، وليس المقصود هو السيادة المطلقة، ولكن المراد هي أن تكون الطابع الغالب، فلا مكان لأحلام المدينة الفاضلة بل هو الواقع بمختلف تفاعلاته، والعكس صحيح، لكن مصدر الأزمة هو عندما تتلبس قيم الشر لباس قيم الخير، وتقدم نفسها على أنها هي الخير المطلق.

المتأمل في السائد الفكري الذي يروجه إعلام هذه الأيام، يستخلص سيادة نمط فلسفي واحد لا يخطئه العقل يجد مصدره في فلسفة الطبيعة، وفي نظرتها إلى الإنسان باعتباره شيئًا من الأشياء آخر، يسهل السيطرة عليه وإخضاعه للتجربة وتحويله إلى مجرد مكون قابل للتكييف والتحويل حسب الأوضاع التي تراد له، وممنوع من أبسط مقوماته وهو حرية أن يفكر وأن يقرر مصيره بحرية اختيار.

أوجدت فلسفة الطبيعة وثوبها المزركش الحداثة بنيات ذات أبعاد أخلاقية، تفكر وتضع الخطط الإستراتيجية لاستدراج الإنسان المسكين وإسقاطه في شرك التقليد الأعمى لمنظومتها الأخلاقية وفق نمطية محددة سلفًا. والإعلام هذا الكائن العجيب، والغول المخيف الذي ولد من رحم الحداثة، هو الوسيلة التي أنيط بها صناعة الإنسان النمطي، وصناعة رأي عام مسلوب الإرادة تحت عناوين براقة كسعادة الإنسان، وإخضاعه لمنطق العلم لأنه هو الكفيل بضمان هذه السعادة، لكن عندما ينسلخ العلم عن القيم يشيئ الإنسان ولا ينظر إلا في مكونه المادي، فالإعلام المنحرف عن الغايات النبيلة، هو أداة فلسفة الطبيعة في انتزاع الإنسان انتزاعًا من أحضان قيم الخير.

هناك دائمًا -وعلى مر التاريخ- طرف أو أطراف سياسية واقتصادية وثقافية من المجتمع الإنساني، تسعى إلى تشكيل اقتناعات وبناء رأي عام يسود لخدمة مصالح فئة أو جهة معينة، وقد يعتبر ذلك أمرًا مشروعًا، لكن عندما تنسلخ المصالح والأهداف عن القيم السامية، وتقوى علاقتها بقيم أخرى، فإن الرأي العام المشكل يتحول إلى كيان ممسوخ لا يعي ذاته ولا كونه مشدودًا إلى خيوط قوية تحركه عن بعد، وقد يجد سلوانه في الحيز الضيق المتروك له إراديًا لكي يتوهم أنه صاحب إرادة حرة وبأنه يملك قرار مصيره.

ومن هذه الزاوية ينبغي النظر إلى حقيقة القيم والأخلاق، أي من زاوية علاقتها بمؤسسات الإعلام بشتى أشكالها ووسائلها، وليس المقصود بالمؤسسة هنا الجانب المادي فحسب، بل المقصود هو المؤسسة باعتبارها اختيارًا فكريًا وإستراتيجيًا يتوخى رؤية فكرية أو فلسفية أو عقدية على المدى القريب والمتوسط والبعيد، لتبرز الأسئلة المشروعة الآتية: ما طبيعة السلطة التي يتوجب أن تخضع إليها مؤسسة الإعلام؟ هل تخضع لسلطة الدولة الحديثة بمفهومها الإشكالي في الوقت الذي يتحدث عن سلطة رابعة يعتبرها البعض ضمير المجتمع وعقله النقدي المتزن؟ وما الحد أو الحدود التي يتوجب ألا يتخطاها هذا الإعلام في دائرة القيم والأخلاق؟

غير خافٍ أن أطرافًا كثيرة في حاجة ماسة إلى الإعلام وقد وظفته وتوظفه بصورة متواترة، وغير خافٍ كذلك أن هذه الأطراف ذات غايات مختلفة غير ربحية أو ربحية، وذات غايات ثقافية نبيلة أو غايات أيديولوجية وسياسية غير نبيلة، فهل المفترض خضوع هذه الأطراف لسلطة ما، كسلطة الدولة باعتبارها قيمة أخلاقية أو لسلطة منظومة أخلاقية أخرى كسلطة الأخلاق باعتبارها جوهرًا؟ ومن يفترض فيه تحديد مكونات هذه المنظومة، أي ما المصدر الذي تستمد منه القيم مرجعيتها؟ وأين تنتهي هوية من يوظف الإعلام لتبدأ السلطة الإعلامية، وهل عندما تحاكم المؤسسة من زاوية القيم يجوز محاكمة من يؤثث هذا الإعلام؟ ثم هل من دور للقيم والأخلاق في إعادة توجيه رسالة الإعلام وتحديد اختياراته؟

عَمِل صنف من الإعلام منذ عقود على تصنيف العالم إلى دوائر ومنظومات ثقافية مختلفة، فهناك الغرب والشرق، والشمال والجنوب، والعالم المتقدم والآخر المتأخر، وروج هذا الإعلام نفسه لفكرة تقسيم العالم على أساس حضاري إلى سبع حضارات، متصارعة فيما بينها، لينحصر الصراع بين ثلاث حضارات، وقد تكون الغلبة لنموذج حضاري يعلن نهاية التاريخ وينبغي أن يسود أو هو السائد. كل هذه التصنيفات تتم على أساس

hiragate.com

أخلاقي، وعلى أساس فكرة المركزية التي حتى وإن حصن الذهن بشتى ضوابط العقل العلمية والمعرفية، فإن التصنيف يبقى هو المعيار الذي يتخذ منه الإعلام الطاقة التي تدير آلته.

وإذا كانت فلسفة الطبيعة وآلياتها قد أوجدت بنية أخلاقية قد يعدها البعض بنية فاسدة، وعلى أساسها نموذج حضاري يحتل الريادة العالمية، فإن أطرافًا دينية وسياسية، تدعي المركزية الفكرية والدينية، وتحتكر السلطة الأخلاقية، وتصنف المجتمع على أساس ذلك.

الإعلام الصحيح يجب أن يكون هدفه الحقيقة، ومنهجه الصدق والموضوعية، وهذه كلها مقومات يستوي فيها جميع أفراد المجتمع الإنساني، لأن تلك هي المبشرات الأخلاقية التي تبشر بها الثقافات وتدعي كل القوى السياسية والاقتصادية والفكرية أنها تدعو إليها وتضمن الحفاظ عليها، على أساس أن الصوت الواحد نشاز ويضر أكثر مما ينفع، لكن واقع الحال يؤكد عكس ذلك، خاصة عندما تتمركز السلطة والقوة في بؤرة واحدة، وتحاصر الصوت الآخر، ويتحول الإعلام إلى بوق يخدم جهة واحدة ويحاصر الجهات الأخرى. والأغرب هو أن تكون القيم والأخلاق هي الأداة التي تشحن بها القوة المتسلطة الإعلام من أجل محاصرة الأصوات الأخرى، ويصبح جوهر الأخلاق والقيم مجرد سفسطة لخداع ذوي المدارك التي يسهل أن تنجر خلف سيكولوجية الجماهير، كذلك عندما تتموقع الأصوات الأخرى في خانة الدفاع عن الحق والقيم والأخلاق.

تبدو القيم والأخلاق في هذه المعادلة هي الحلقة الأضعف، لأنها باعتبارها جوهرًا قد تفرغ من جوهرها وتحول إلى سيف يتسلط به طرف على الطرف المعارض بدعوى المروق عن القيم والأخلاق، بعبارة أخرى ومن منظور آخر، القيم قيم ما دامت تخدم رؤية طرف ضد طرف، والحال أن الأصل هو جوهر القيم والأخلاق، وليس تفسيرها وتأويلها حسب الأهواء والمصالح.

الإنسان من منظور إسلامي، منفتح على ثلاثة دوائر للتفكير: التفكير في الذات، والتفكير في الغير، والتفكير في المصير بعد الموت في الآخرة، لكن في معادلة تسلط طرف ما لا نجد سوى المنافع الخاصة واختزال القيم فيما يمكن جنيه من دون اعتبار للوسيلة، لأن الغاية تبرر الوسيلة والتفكير ينحصر في الذات وبالذات ويبقى الغير مجرد وسيلة. وبسبب تضخم الـ"أنا"، وضعت الخطط والسياسيات، ودبرت الحروب، وصنع الرأي العام وفق نمط فكري لا يعنيه من حقيقة الواقع إلا الأرقام وبيانات ارتفاع الربح والخسارة، حسب مؤشرات العرض والطلب، وأما الدائرة الثالثة فمحجوبة بإشباع هذه اللذة.

الأزمة الفعلية -وفي العمق هي أزمة القيم- وأزمة غياب منظومة فكرية متكاملة، منظومة ترجع إلى أصل ثابت، قادرة على تقديم درجة معينة من الحصانة الفكرية للإنسان، تمكنه من إدراك أبعاد خطاب الإعلام، ومن إدراك دوره في هذا الوجود، وإدراك مسؤوليته تجاه غيره، وإدراك أن للقيم حدًّا أدنى، وهذا الحد الأدنى مشترك بين جميع البشر لا تخطئه مدارك العقلاء والأسوياء، ويتوجب تفعيله وفرضه على كل سلطة كيفما كانت طبيعتها. من هذه الزاوية يبرز المثقف باعتباره مكونًا من مكونات دائرة العقلاء والأسوياء. لقد حان الوقت ليكون للمثقف حضوره الفعال، ويتحول إلى قوة اقتراحية مرشدة، وحان الوقت ليتخلى عن رهن صوته لخطاب الإعلام، ولمن يتحكمون في إدارة خيوطه. ليس المراد إبراز صورة قاتمة عن هذا المثقف الذي توظفه وسائل الإعلام، بل الغاية هي دفعه إلى فرض ذاته مفكرًا ومخططًا وموجهًا وصاحب سلطة ثقافية حقيقية.

الأزمات ذات مضار كثيرة على حياة الأمم والشعوب، لكنها في الوقت نفسه مجال تاريخي لتوقف الذات مع نفسها من أجل إعادة طرح أسئلتها الوجودية، والإعلام لا يمكن أن يشذ عن هذه الحقيقة. فالمتأمل في المشهد الإعلامي، سيلاحظ بأنه لم يعد قادرًا على التصرف في ضوء الحكمة والموضوعية، وقد حان الوقت لتمارس القيم في بعدها الجوهري سلطتها المصححة والموجهة. ■

(*) أستاذ الفكر والحضارة بجامعة أبي شعيب الدكالي / المغرب.

hiragate.com

د. العطري بن عزوز*

تصنيف العلوم
من منظور التكامل المعرفي

تعرض العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر إلى أزمات متعددة، ومن أخطرها الأزمة الفكرية والتربوية التي استهدفت المقومات الأساسية للأمة الإسلامية. فحين تعرضت الدولة العثمانية للهجمة الغربية كانت تلك نقطة البداية في قطع أواصر الأمة بحضارتها وثقافتها وتراثها، وكانت بداية لمرحلة جديدة، اكتسب من خلالها المجتمع المسلم القابلية لاستقطاب التقنية والمنظومة التربوية الغربية التي أقنعت الكثير من الكتاب والمفكرين بأهميتها، من أجل التقدم الذي ينبغي الاحتذاء به. وقد كانت كتابات المفكرين الغربيين في أغلبها تُنقص من شأن العرب والمسلمين، كما فعل رينان (ت ١٨٩٢م) الذي اعتبر العقل العربي عاجزًا عن إنتاج المعرفة وإقامة الحضارة والتقدم. وفعلاً قد أثرت هذه الأفكار في الكثير من

أبناء الأمة العربية والإسلامية إلى يومنا هذا. ومهما يكن فإن ضغط العلوم والتكنولوجيا الحديثة على الإسلام ما زال قويًّا، خصوصًا ونحن في حالة الضعف الفكري والحضاري بسبب تعلقنا بالمنظومة الغربية والتقليل من أهمية المنظومة الإسلامية، على الرغم من أن هذا الفضاء ذاته قد شهد تقدمًا علميًّا كبيرًا أثناء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. والقرآن الكريم يحث على التفكير والتدبر في الكون في أكثر من ٧٠٠ موضع في كتاب الله تعالى، وأن أول ما نزل منه هو كلمة "اقرأ" التي تؤسس للبحث العلمي وتصنيف العلوم.

الأساس العقدي لتصنيف العلوم

الأساس العقدي لتصنيف العلوم ينبثق أصلاً من مقاصد القرآن، المتمثلة في ترسيخ مبادئ الإيمان والتوحيد، باعتباره المحور الأساس الذي تدور حوله جميع العلوم والمعارف، حيث تتكامل وتشكل لنا وحدة معرفية واحدة تصب في الغاية القصوى من وجود الإنسان؛ وهي توحيد الله تعالى، وعبادته، والقيام بالخلافة كما أرادها الله تعالى للإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض، قال تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾(ص:٢٦).

وتلقي المعرفة المتكاملة يكون من مصادرها، فلكل معرفة مصادرها التي تؤخذ منها، فنجد القرآن يرشد إلى المصادر حال الاستفسار: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٤٣).

وأهل الذِّكر هم أهل التخصص في أي جانب من جوانب المعرفة.

وتصنيف العلوم فيه ثوابت وفيه متغيرات، فالمتغير يتأثر بالنظرة العلمية وبالعصر، والثابت يتأثر بعقيدة المجتمع، ولا يكون لهذا التصنيف دور فعّال في الحضارة إلا إذا انطلق من عقيدة التوحيد التي هي المبدأ الأساس الذي ينبثق منه النظام في الكون والإنسان والحياة، ويمد الإنسان بفهم الذات.

والإصلاح الحقيقي يتمثل في تفعيل دور العقيدة والإيمان في جميع العلوم والمعارف التي تدرس في جامعاتنا سواء العلمية منها أو الأدبية في تناسق وانسجام

تصنيف العلوم فيه ثوابت وفيه متغيرات، فالمتغير يتأثر بالنظرة العلمية وبالعصر، والثابت يتأثر بعقيدة المجتمع، ولا يكون لهذا التصنيف دور فعّال في الحضارة إلا إذا انطلق من عقيدة التوحيد.

وتكامل، وهذا ما يعترف به "ألكسيس كاريل" بقوله: "إن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم، ولكنه عامل لا مفر منه في الابتداع. والعلم بدوره يقوي العقل.. فقد جلب للإنسانية موقفًا عقليًّا جديدًا، علاوة على الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقي. فالحقيقة المستمدة من العلم، تختلف اختلافًا تامًّا عن تلك المستمدة من الإيمان. فالأخيرة أكثر عمقًا ولا يمكن التشكيك فيها بالمجادلات.. ولقد كان يطلق على هذه الظاهرة اسم "الإلهام" أو "الوحي" في الأزمنة السابقة"[١]. فـ"كاريل" يعترف بدور الإيمان في معرفة الحقيقة، ويصرح بصدق الحقيقة المستمدة من الإيمان التي لا تحتمل الخطأ.

القرآن وتصنيف العلوم

إن الرؤية الإسلامية الكونية هي رؤية تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وترشدها، وبها تتحقق الذات والفطرة الإنسانية السوية كما خلقها الله وأبدعها، ولا مجال فيها للتعارض بين الوحي والفطرة، ولا أحرص على فهم هذه الفطرة وتفعيلها وترشيدها من الإسلام[٢]، والآيات التي فيها إشارات طبّية -مثلاً- كثيرة نذكر بعضها في هذا الجدول:

الطب النفسي: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥).

علم الأجنة: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾(الرعد:٨).

طب النساء والتوليد: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(لقمان:١٤).

طب العيون: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٤).

hiragate.com

علم الوراثة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾(الزمر:٦).

أمراض جلدية: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾(الزمر:٢٣).

الجراحة: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(النساء:٥٦).

طب الأطفال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾(الحج:٥).

علم التشريح والطب الشرعي: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾(يونس:٩٢)، ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾(طه:٢٧).

ولذلك فالجانب الأكاديمي في الجامعات، يجب أن يبنى على أساس التزام العلم بالكليات الإسلامية، والمنهجية العلمية والتجريبية، ومن خلال الأساليب الإبداعية التي تؤدي إلى تكامل المعرفة الإسلامية من الوحي والعقل والواقع، وتنتهي باستعادة الرؤية الإسلامية، وتنقية الثقافة، وتصحيح أساليب التربية، والتكامل المعرفي والمنهجي في بناء الإنسان المسلم.

فتصنيف العلوم من منظور مقاصد القرآن الكريم المتمثلة في التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم العقل، أمسى ضروريًّا في عصرنا، حيث طغت أفكار على عقول الباحثين والدارسين بأن تاريخ المعرفة عند المسلمين كان خليًا من هذه العلوم، كما أن لتصنيف العلوم أثرًا إيجابيًّا في التعليم والتنمية العلمية، وذلك بإحصاء العلوم والتأريخ لها، وليست الغاية من تصنيف العلوم هو مجرد إحصائها وترتيبها كما هو متبادر إلى الذهن، بل الغاية تتمثل أيضًا في اتخاذ من وصف ما كان من واقع العلوم، بناء لما ينبغي أن يكون في توجيهات العقل إلى المعرفة على المستوى الإبداعي والاستكشاف، بحسب ما يقتضيه تقدم الحياة الإنسانية، وما تمليه حاجة الأمة ومصلحتها. ولقد اختلف العلماء في المنهج الذي ينبغي سلوكه أثناء عملية تصنيف العلوم وترتيبها، اختلافًا ناتجًا عن النظرة إلى العلوم ذاتها؛ فمن يرى أن العلوم تتفاضل فيما بينها قام بترتيبها ترتيبًا حسب الأشرفية والأفضلية، وأما من يرى أن العلوم منها النافع ومنها الضار، فيقوم بترتيبها حسب هذا المنظور في التفرقة بين العلوم النافعة والضارة كما ذهب إلى ذلك ابن حزم، وعند الغزالي في "الإحياء"، يجعل العقل والنقل هما المعيارين في التصنيف. أما ابن سينا فيعتمد على ثنائية العلم العملي والعلم النظري ذات الأصول اليونانية، على قدر ما نجده يختلف مع هذا التصنيف في أحيان أخرى، وهذا ما ثبت في مؤلفه "منطق المشرقين"؛ إذ يصنف العلوم في واحدة تجري أحكامها الدهر كله، وأخرى متساوية النسب في جميع أجزاء الدهر وهذه العلوم أولى بأن تسمى "حكمة".

وابن خلدون يصنف العلوم إلى ما يمكن تحصيله بالوحي، وما يمكن تحصيله بالعقل فيقول: "اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليمًا، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقفه نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر.

والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي"[٣].

وما نريده من التصنيف من منظور التكامل المعرفي، هو محاولة التقريب بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية للتداول الإسلامي، والافادة منها في تطوير العلوم والدراسات الإسلامية، وفي الوقت نفسه تجب القراءة الفاحصة لكل العلوم الوافدة، ومرجعتها والتنبيه إلى خطورة ما ورد فيها من قوالِب لا تُناسب أهل الإسلام. فالنقد الأساسي الذي يوجه للعلوم التربوية والنفسية والاجتماعية أنها نشأت في بيئات لا دين لها، جعلت الإلحاد منهجية ينطلق منها. وهذا يلزم الأمة بناء حصانتها العلمية من مصادرها، وتصفيتها، فتأخذ ما ينفعها ويناسبها وترد ما ليس منها. فالمنهجية العلمية الواعية تلتقط الصواب من كل أحد، ما دام خيرًا

hiragate.com

لا يصادم ما هي عليه، بغض النظر عن صفات قائله وخصائص مصدره، ويجب التمييز بين الغزو الثقافي والتبادل المعرفي.

والبحث في تاريخ وأحوال الأمم؛ من عمران، وأساليب العيش، وتزكية الأخلاق، كلُّها وردت في القرآن، في أحد محاوره الهامة وهي القَصَص: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١).

ويمكن استنتاج تصنيف العلوم بالمنظور التكاملي في القرآن، من خلال نظرة شمولية للقرآن الكريم، حيث نجد أن العلوم تدور في الغالب على محاور ثلاثة كبرى هي:

١- علوم الألوهية: وهي كل ما يتعلق بتوحيد الله تعالى، وما يتعلق بها من قضايا العبادة.

٢- علوم الكون: وهي ما يتعلق بقضايا الكون، وما أودع الله فيه من الأسرار والقوانين.

٣- علوم الإنسان: وهي ما يتعلق بأحوال الإنسان وعلاقته بالخالق، والعلاقات الفردية والاجتماعية.

وكل قسم من هذه الأقسام تتعلق به علوم متخصصة:

فالقسم الأول: تتعلق به علوم الشريعة على اختلاف تخصصاتها، على أن يكون بين المسلمين من هذه العلوم قدر مشترك لا يعذر أحد بجهله، ثم يكون ما بقي ميدان اجتهاد ومنافسة بين أهل العلم فيه.

والقسم الثاني: يتعلق بكل العلوم الطبيعية على اختلاف تخصصاتها.

القسم الثالث: يتعلق بالعلوم الإنسانية على اختلاف تخصصاتها.

وفي الوقت نفسه، هناك تكامل وانسجام وتوافق بين هذه الأقسام الثلاث، بحيث تتكامل لبناء حضارة الإنسان. فالمتخصصون في هذه العلوم كلها حين يريدون بها وجه الله تعالى، تكون لهم ضربًا من العبادة، وهو ما يدعو المسلم إلى الإبداع حين يشعر في قرارة نفسه أنه يمارس هذه الفنون وهو مأجور عند ربه.

وهذه الصورة هي التي تعطي شمولية للعلم في القرآن الكريم، فلا مادية ملحدة ولا لاهوتية رهبانية مغالية في المثالية. فالتوازن من خصال التوسط والوسطية في القرآن، فمدلول العبادة واسع في الإسلام، و"يشمل

الأساس العقدي لتصنيف العلوم ينبثق أصلاً من مقاصد القرآن، المتمثلة في ترسيخ مبادئ الإيمان والتوحيد، باعتباره المحور الأساس الذي تدور حوله جميع العلوم والمعارف.

ثلاثة مظاهر: مظهر شعائري، ومظهر اجتماعي، ومظهر كوني.

- أما المظهر الشعائري، فهو يتمثل في شعائر وممارسات ترمز إلى أشكال الحب والطاعة التي يعبد بها الإنسان الخالق.
- وأما المظهر الاجتماعي، فموضوعه الثقافة والقيم والعادات والتقاليد، والقوانين والنظم.
- وأما المظهر الكوني للعبادة، فموضوعه العلوم الطبيعية التي توفر للعالم المسلم دخول مختبر الآفاق، وإبراز معجزات العصر وبراهينه، وتوفير الشواهد التي تكشف عن عظيم صنع الله وقدرته، وتقنع المتعلم الجديد والأجيال الجديدة بوجوب محبة الخالق محبة كاملة، وطاعته طاعة كاملة.

فهذا التصنيف الهيكلي للعلوم الغرض منه هو تنظيم المعارف وتحقيق الأهداف التعليمية والتربوية، كما يحقق المعرفة بالحقائق العلمية ذاتها، فله أيضًا بعدًا تربويًّا يتمثل في تسهيل عمليات التعليم وتحقيق التعلم. وهذا المخطط الذي نقترحه لتصنيف العلوم من منظور التكامل المعرفي، يصب في النهاية في مقصدين اثنين هما غاية وجود الإنسان، وهما توحيد الله ﷻ وعبادته، وبناء الحضارة الإنسانية. ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، ترجمة: شفيق أسعد، مكتبة المعارف، بيروت ٢٠٠٣، ط١، ص:١٣٤.

(٢) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، أبو سليمان، دار السلام، القاهرة ٢٠٠٩، ط١، ص:٢٠٠.

(٣) المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٥، ص:٤٠٣.

فلة محمد داود*

طائر يبحث عن الحقيقة

كان الطائر حبيسًا لأيام عديدة، طُوّق من عنقه وألقي بعيدًا عن الحقائق، إلا أنه تصدّى لذلك فبدأ يناقش وينقّب ويفكر ويعمل ويحفر. مضت السنون وهو على تلكم الحال مهموم منزو، لكن في أعماق داخله صراع حاد بين الخير والشر، بين الأنا والآخر، بين المواصلة والانسحاب، لم يكن يهتدي إلى حل وسط، بل كان غارقًا في أعماق كمٍّ هائل من الأفكار والمفاهيم والتيارات والفلسفات وتناقضات عقله وقلبه. لم يدرك عقله الصغير المتحيّز، وقلبه العاطفي المحدود، أن ثمة حقيقة واحدة وحيدة هي أم الحقائق الأخرى المتعددة والمختلفة في درجة الأهمية.

هذا الطائر الوحيد انتقل من مكان لآخر، وحمل معه الهم الكبير، هُجّر وهُوجم وقُوتل، إلا أنه أعرض عن سفاسف الأمور، وأبى وصمد أمام مطلبه الرباني الحضاري الأبي التليد.

هذا الطائر كان يضعف مرة ويقوى أخرى، تغيب بعض الأفكار والاعتقادات عن منظومة عقله فيطرح أسئلة عديدة لما يحدث له ولا يلقى لها جوابًا مقنعًا. فتجده ولفقدانه لهذا الاعتقاد الصائب، ولعدم توفر عقله على المستقبل الغشائي النوعي له، فإنه بطبيعة الحال لا يصل إلى تحليل عميق ونظرة شمولية كلية للظواهر التي تحصره، بل يُجبل على التفكير الجزيئي الذي يحلل كل ظرف على حدة، مما يعجز في الأخير عن إيجاد حل مثالي للمرض ذاته، بل يجد نفسه عالج الأعراض لا غير.

تغيب أحيانًا عن اعتقاداته فكرة أن سر الحياة صبر ويقين واجتهاد، فاكفهرَّ في كثير من الأحيان من الأقدار التي تحويه، فتجاهل بأن كل ما قضاه الله له هو كل الخير

وكل البشر وكل السعادة، وتجاهل في الحين الآخر بأن الفكرة العليا والأولى والأساسية للدين السرمدي (الإسلام) هي التسليم لله وتفويض كل الأمور إليه. ولما اكتشف ذلك الطائر جرْم تصرفه وقبْح نظرته القاصرة، زاد همّه وتضاعف دمعه واشتد أرقه.

وغاب كذلك عن جملة اعتقاداته بأن التعلم صبر واغتراب وكدّ وعمل، فبكى لحاله مرارًا لعدم قدرته على تفسير ما يعايشه، وإسقاط ما يطالعه على دائرة الواقع، وعجزه عن التركيب والتحليل، والوصول إلى حل للإشكاليات المركبة.

ونسي يومًا بأن المقصد الأسمى للخلافة والتعمير والبناء، هو الذوبان والانصهار مع الآخر مع تقليص حجم الأنا والتخفيف من ضخامتها، ونسي بأنه عليه أن ينسى نفسه، أي أن ينسى بأنه فعل وأنشأ وجاهد وخطط وعمل.. أن يحترق بصمت كبير دون أن يعلم الآخرون إلا إذا اقتضت الضرورة. وتناسى بأنه يجب عليه أن يعمل ضمن مجموعة لتكون النتائج أكثر فعالية ودقة، وأن العمل الفردي تشوبه نسبة كبيرة من النقص والسلب والتشوه، ولم يدرك فظاعة الطاقات التي ضاعت لغياب التوجيه والإرشاد.

واشتكى الطائر الحزين وبكى وتقطع واحترق لسؤال همّ عظيم: كيف الناس تأمرني بفعل وهي لا تفعله؟ ما الذي جعل الجسر بين الفكر والفعل وبين الفعل والفكر هشًا منهارًا؟ لماذا تتميز حياة الفعل بالجمود رغم غنى العقل بالمعارف!؟ لماذا الرسالة العصبية بين مرحلة الاعتقاد بفكرة ومرحلة فهمها ومرحلة تطبيقها بطيء جدًّا جدًّا!؟ فهنا حقًّا ابيضت عيناه من الحزن، فعقد العزم على السفر مرة أخرى للغوص في أسرار النفس البشرية، وهنا أيضا أعلن حقًا ضعفه وعجزه وقلة فهمه، ولكن تثبَّث وصمد.

استاء الطائر لمرات كثيرة عن حالة العلاقات الاجتماعية، وكيف أن الحب انعدم بين الناس حتى انسلخ من مفاهيمه الصحيحة "الجمال والحسن والرحمة والمودة"، وأصبح لفظًا يطلق على معاني "العار والفسق والخبث والفساد"، وأصبح المصطلح لا يعني إلا بما هو مشين.. والأدهى من ذلك هو أن توجهاتنا الفكرية

تعجب حقًّا حين يُراعى الاهتمام للمباني وتُنسى المعاني، ونتاجًا لكل ذلك، أصبحت الناس تناقش الأشخاص والأشياء بدلاً من الفكرة نفسها، فيبنى الحكم على طبيعة الإنسان وليس على طبيعة الفكرة في حد ذاتها.

المختلفة منعتنا من التعايش والتواصل، فتحيَّز كل واحد بانتمائه الجغرافي ونسيجه التاريخي، فاهتم الأغلب بتعداد أوجه الاختلاف، وعقدوا جلسات التخطيط لأجل القشور ونسوا اللب والمعنى، فتقطّع حبل التواصل واشتد النزيف، وتأزم المرض في ظل غياب الصفائح الدموية، حتى وصل الحال في بعض الأحيان إلى الفتن والحروب والنزاعات الطائفية الخاوية. فتعجب حقًّا حين يُراعى الاهتمام للمباني وتُنسى المعاني، ونتاجًا لكل ذلك، أصبحت الناس تناقش الأشخاص والأشياء بدلاً من الفكرة نفسها، فيبنى الحكم على طبيعة الإنسان وليس على طبيعة الفكرة في حد ذاتها.

وتعجب أيضًا من نقص اهتدائها وتحليلها السطحي للوقائع، وإسقاطها غير الممنهج للرؤى الكونية، ورؤيتها القاصرة للغير! كما استاء في المرة نفسها من كيف أن الناس لا تجد انسجامًا بينها، وتراحمًا وخدمة وتفانيًا لأجل رفعة بعضها البعض، وكيف أن البغض يحتل الحيز الأكبر من القلوب، ناهيك عن الحقد والحسد والشك؟!

وكان قد سلب نومه هذه المرة حالة أخلاقية هشة أصيبت بها العلاقات الاجتماعية؛ فهي ترى الحق باطلاً والباطل حقًّا، أي أصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وكيف أن ذلك مستساغ بين الطباع البشرية؟ وكيف أننا لا نفهم أن مصيرنا متعلق بمدى امتثالنا لهذا الأمر الرباني، ومدى تأديتنا لهذا الواجب الإنساني؛ "واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"؟ ثم ما لبث الطائر أن يصفع نفسه بقوة بعد أن استعرض قائمة للمنكرات التي مر بها وسكت.. ولا زال الصراع قائمًا.

هذا الطائر كان يتلقى عدة رسائل وإشارات سريعة من ربه، بعضها تحذيرات لبعض الأخطاء المرتكبة،

hiragate.com

وأحيانًا شعاعات للخروج من قضايا مؤرقة، كما تأتي في مرات أخرى للاستذكار والاعتبار.. كان همّ هذا الطائر، أن يفهم مقصد كل ابتلاء وإشارة ورسالة، إلا أنه كان أحيانًا يتفطن لها بعد اجتياز الوقت.

كان هذا الطائر يرى أن الصلاح في تطبيق القرآن حرفيًا واستحضاره في كل آن، وتوصل إلى أن معظم الأزمات التي يعاني منها إنما هي نتيجة فهمه القاصر له. فعاهد نفسه على حمل رسالته لإنقاذ روح الإيمان، وتبليغ الناس بأن سناه لا يخبو ونوره لا يأفل وطاقته لا تضعف وإعجازه لا ينمحي.

وفي يوم كان قد كُتب لهذه الأمة شروقًا لن يأفل، وصحوة لن تذبل، حينها تحرّر الطائر وقد أتم مهمته النبيلة الحضارية وقد شيد الصرح القويم، فسمع صوتًا خافتًا يغمره لطف نوراني رباني يهمس من الأعماق: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠). هذا الطائر فرد في جهوده، لكن النتيجة التي توصل إليها هي خلاصة بعض الطيور الخيرة التي عاصرته رغم اختلاف الوسائل والطرق. كانت أجيالاً متتالية، كلما انقضى أحدها همس لأخيه الثاني: "إياك أن توقظ ربيعًا همجيًا، بل امض في زرع البذور واتركها ستلد الأمة من جديد وستعود إلى ركب الحضارة، لا تستعجل".

هذه دورة حياة إنسان راشد، حامل لهمّ الأمة، معتقد بضرورة الانصهار والتفاعل والمعاناة، ومؤمن بنظرية "اتركْ أثرًا"، وماض في سبيل الفعل، أنيسه في ذلك قول أحد المفكرين: "عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا، فلا تتكلم، وإلا فلن تجد أحدًا يصغي إليك".

يقضي حياته جريًا وراء الحقيقة، وتنقيبًا من أجل الحصول على اللب وإن كثرت العراقيل وتعددت التناقضات، ثم يبشره الله في آخر المطاف بالنجاح الأخروي الأبدي، وهذا مقصد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:٢٠٠). ■

(*) كاتبة وأديبة مغربية.

اليتيم الكسير

قِبابٌ كانت للصقور أعشاشًا،
وللأمجاد أوطانًا..
واليومَ، مصفوفة،
بالأسى تبكي،
وعلى الفقيد العظيم،
صلاةَ الغائب تصلّي،
على بطل هنا كان، ثُمَّ مضى،
وفي غيابَة جُبِّ الزمان انطوى.

***

نوزاد صواش*

مشروع الخدمة
حقيقة واقعية وليس نظرية خيالية

١ الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مفكر فريد من نوعه. ودعناه إلى ربه في إسطنبول يوم ٣١ مايو ٢٠١٧ بقلوب حزينة وعيون باكية. ولد الأديب الكبير رحمه الله في الموصل بالعراق سنة ١٩٣١، وعاش فيها سنوات طويلة من المعاناة والحروب والتقلبات السياسية والاجتماعية التي ارتسمت على قسمات وجهه حزنًا وألمًا. الحرب العراقية الإيرانية أخذت منه أحد أبنائه، ذهب ولم يعد مرة أخرى، ولم يعرف عنه شيئًا حتى اليوم.

ذاق آلام الاستبداد السياسي وسقوط بغداد والويلات التي لاقاها البلد والشعب العراقي من بعد حتى يومنا هذا. لكنه وهو المفكر الأديب المرهف، عاش يسطر السنوات العجاف تلك بقلمه المبدع، يسطرها دمًا ودموعًا وآلامًا.. وآمالاً.. إلى أن عرف رسائل النور في الثمانينات من القرن الماضي، فكانت بلسم الأمل له، وسهر على قراءتها والكتابة عنها. ثم تعرّف على فكر الأستاذ فتح الله كولن وغاص في أعماقه، ثم انتقل إلى تركيا ليطلع على تجليات هذا الفكر في ساحة الواقع، فرأى من المؤسسات ما يثلج الصدر ويبهج القلب. ثم قرر أن يعكف على هذا الفكر قراءة ودراسة وبحثًا وكتابة، وأن يستقر في درة المدن وملتقى الحضارات إسطنبول.

الأستاذ أديب الدباغ، ساهم في تحرير ترجمة كتب الأستاذ فتح الله كولن إلى العربية، وقدّم لبعضها، وألف مؤلفات حولها، وتحدّث عنها، وألقى محاضرات عديدة في محافل علمية كثيرة. أديب الدباغ قصة حياة حافلة بالتجارب.. حياته خلاصة حياة الأمة في العقود الثمانية الماضية. التقينا به رحمه الله قبل عام من رحيله إلى ربه في حوار ودّي حاولنا أن نستخلص من خلاله عصارة

الأستاذ كولن يرى أن الذات المسلمة تنطوي على كثير من الطاقات، ولكنها مطمورة تحت جوانية المظاهر. ولذلك في كل كتاباته يحاول أن يثير هذه الذاتية المختزنة في داخل المسلم، لكي تعود من جديد، ولكي تعطي وتبدع وتجدد وتبتكر.

حراء

تجربته مع فكر الأستاذ فتح الله كولن ومشروع الخدمة، وإليكم ما دار بيننا من حديث.

(نوزاد صواش) س: حسب علمنا، بداية القصة كانت مع رسائل النور، وكان لكم إسهام كبير في تعريف العالم العربي برسائل النور. وفيما بعد عندما بدأت تصدر الطبعات العربية لكتب الأستاذ فتح الله كولن اشتغلتم في تحريرها والبحث فيها والكتابة عنها.. هل لكم أن تلخّصوا لنا مساركم مع هذين العلَمين؟

(أديب الدباغ) ج: اطلعت على كتب الأستاذ النورسي عن طريق الأستاذ إحسان قاسم. كان صديقًا لي، وكان مهتمًّا بترجمة رسائل النور. وكان كلما يترجم جزءًا من هذه الرسائل يطلعني عليه، فوجدت فيها عمقًا إيمانيًّا عظيمًا يحتاج إليه المسلمون في العصر الحاضر، هذا العصر الذي طغت فيه المادية بشكل فظيع، فكأن الفكر النورسي الإيماني يقف ضد هذا التيار المادي القوي المتدفق.

س: بعد رسائل النور تعرفتم على مدرسة الأستاذ فتح الله كولن، فما هي الصورة التي انطبعت في ذهنكم؟

ج: الحقيقة، تحدث مفكرون كثيرون عن الأستاذ فتح الله كولن، وأنا لا أدعي أنني سأضيف جديدًا على ما قالوا. ولكن أقول؛ أنا اطلعت على الأستاذ فتح الله كولن من خلال معالم هذه «الخدمة» المباركة التي كنت ألمس بعض جوانبها، سواء عن طريق الأفراد أو عن طريق المؤسسات.. فمن الأشياء التي عرفتها، أن الأستاذ فتح الله لم يكن قد التقى بالأستاذ النورسي، بل قرأ بعض رسائله وتأثر بها، وجعلها أساسًا في تفكيره فيما بعد. نستطيع أن نقول إن الأستاذ فتح الله اتخذ من فكر الأستاذ النورسي مستندًا لتطوير رؤيته الحضارية. كان فكر الأستاذ النورسي عبارة عن فكر تنظيري، لكن الأستاذ فتح الله استطاع أن ينزّله على أرض الممارسة والواقع والحياة، وهذه هي ميزة هذا الرجل العظيم.

س: جلّ المطلعين على مشروع الخدمة يؤكدون على النقطة التي تكرمتم بها، أي القدرة على تحويل الفكر إلى فعل حضاري. برأيكم هل تجاوز الأستاذ الأزمة القائمة في العالم الإسلامي، أي أزمة العجز عن تحويل الفكر إلى فعل؟

ج: نعم، هذا ما حصل. وهذا ما نشاهده في تلك المؤسسات التربوية التي نراها، وهي تقوم بعمل عظيم في خدمة الناس، وفي توعية الناس، وترقية الناس.. في رأيي المتواضع أنه لا يجب أن نقف عند كتابات الأستاذ فتح الله، ولكن ينبغي أن ننطلق مع انطلاقاته الروحية والفكرية التي هي أعظم وأجلّ وأكبر مما نقرأه من كتابات. نستطيع أن نقول إن ما قاله الأستاذ، نزر يسير مما يحمله من أفكار ومشاريع، لأن حقيقة المعاني العظيمة والمعاني الكبيرة التي يختزنها في نفسه، لا تسعفه اللغة على أن يعبر عنها التعبير الذي يستسيغه الناس.

س: كيف كان شعورك وقد خرجت من العراق، وانطلقت إلى القوقاز ثم تركيا ورأيت ما رأيت، واطلعت على قوافل من المدرسين الذين يهاجرون من أجل رسالة، ومن أجل بناء الإنسان؟

ج: أقول أمانة، نحن نحيّي العمل العظيم الذي يقوم به الأستاذ ورفاقه فيما يخص العالم. لأنه يعتقد، لا بل يؤمن إيمانًا جازمًا، أن هذا الفكر الإسلامي الإنساني لا بد أن يكون له ركائز في كل أنحاء الدنيا. فالرجل فكره عالمي، وليس فكرًا محليًا ضيقًا. يريد أن يقدم روح الإسلام إلى هذا العالم المتعشق المتعطش للفكر الإيماني السليم المتوازن المتزن. وليس في داغستان فقط، وإنما في مختلف أنحاء العالم، حتى عندنا في العراق. في الموصل بالعراق قبل داعش كان هناك مدرسة فتحت بتشجيع الأستاذ، طبعًا داعش هدمها. الأساتذة الذين يعملون فيها كانوا نماذج عظيمة تعكس الفكر

hiragate.com

الحضاري الاستيعابي الذي يجمع بين العلم والإيمان. فهذه المدارس ما أسست -في رأيي المتواضع- إلا كمحاولة للربط بين العقل الكوني والعقل الإنساني. هذه الرؤية هي التي ستفتح آفاق العلم التي يحتاجه المسلمون في العصر الحاضر.

س: ما هي كلمة السر بالتحديد؟

ج: هي المدارس؛ المدارس التي تجمع بين العلم والإيمان، بين العلم والأخلاق. هذه المدارس تقوم بهذه المهمة؛ مهمة الجمع بين العلم وبين الإيمان. وقد نجحت كثيرًا وخرّجت أجيالاً من الشباب ذوي روحية عالية، وفي نفس الوقت ذوي علمية عالية. العلمية العالية التي قد تضاهي كثيرًا مما نشاهده من الطلبة الأجانب في أمريكا وفي أوروبا وفي مختلف أنحاء العالم. التجديد في الفكر الديني عند الأستاذ فتح الله، يتمحور حول الجمع بين الجانب العلمي والجانب الإيماني. وهذا هو ما تحتاجه البشرية اليوم، وليس المسلمين فقط. الأستاذ بفكره العالمي الاستيعابي لمعطيات ومجريات الحضارة الحاضرة، وتوجهاته الفكرية والعلمية، استطاع أن يوجد أرضية للإنسان المؤمن، لكي يرتقي إلى هذا المستوى العالي من الإيمان، وإلى المستوى العالي من العلم.

س: ما الذي يجعل لكلام الأستاذ فتح الله كولن تأثيرًا في القلوب، فينطلق الناس ليحوّلوا كلماته إلى مشاريع عملية؟ ما سر التأثير عنده من خلال قراءتكم له؟

ج: أستطيع أن أقول إن الأستاذ فتح الله رجل روح بالدرجة الأولى، رجل روح يحمل مشروعًا حضاريًّا عظيمًا. فهو يمتلك قدرة فذة في فهم الوجدان البشري والقلب البشري، كما أنه يمارس شخصيًّا رياضة روحية عالية. وبالتالي استطاع أن يتفاهم مع القلب البشري بطروحاته التي يطرحها، فوجد هذا القلبُ غذاءه فيما ينتجه الأستاذ، فتجاوب معه تلقائيًا. وهو يرى أن القلب البشري -كما يؤكد الحديث الشريف- هو منبع كل السلوكيات الإنسانية. فإذا صلح القلب صلح الإنسان، وإذا صلح الإنسان، صلح العالم وصلحت البشرية. فلذلك اختار أن يبدأ من القلب، يغذّيه بالأشواق إلى بارئه إلى خالقه.

الأستاذ كولن بفكره العالمي الاستيعابي لمعطيات ومجريات الحضارة الحاضرة، وتوجهاته الفكرية والعلمية، استطاع أن يوجد أرضية للإنسان المؤمن، لكي يرتقي إلى هذا المستوى العالي من الإيمان، وإلى المستوى العالي من العلم.

س: لا شك أن الأستاذ ليس منبتًّا عن رواد الإصلاح الذين عرفناهم في نهاية القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، هو امتداد لهم، أليس كذلك؟ فالعالم الإسلامي عرف مالك بن نبي، عبد الحميد بن باديس، الطاهر بن عاشور، محمد عبده، محمد إقبال، المودودي، النورسي وأمثالهم من الأعلام.

ج: نعم، هؤلاء كانوا رواد النهضة الإسلامية الحديثة. كان المسلمون في ذلك الوقت يشعرون بالدّونية، ويشعرون بالتخلف، ويحسبون سبب ذلك التخلف هو عدم إدراكهم للقضايا العلمية الحديثة. هكذا كانوا يظنون في بادئ الأمر، لذلك حاول هؤلاء الرواد أن يقولوا للمسلمين أن ما يشاهدونه من عظمة الحضارة الغربية وما فيها من علوم وتكنولوجيا، إنما أسسها موجودة في صلب الإسلام وفي صلب القرآن. فينبغي أيها المسلمون أن لا تتركوا دينكم وتستبدلوا به العلوم الحديثة، فلا تناقض بين العلم والإسلام.

س: إذن نبهوا المسلمين إلى حقيقة في غاية الأهمية؟

ج: بالتأكيد، قاموا بعملية إيقاظ، بعملية انبعاث للقوة الجوانية الكامنة داخل المسلم والتي كادت أن تنطمر ويفقدها المسلم إلى الأبد. الأستاذ فتح الله يرى أن الذات المسلمة تنطوي على كثير من الطاقات، ولكنها مطمورة تحت جوانية المظاهر. ولذلك في كل كتاباته يحاول أن يثير هذه الذاتية المختزنة في داخل المسلم، لكي تعود من جديد، ولكي تعطي وتبدع وتجدد وتبتكر.

س: أذكر في سنة ١٩٩٢ فاز طالب في نهاية الإعدادي بمدرسة «ياماڤلَر» في مدينة إزمير الواقعة في غربي تركيا بميدالية ذهبية في أولمبياد الفيزياء العالمية،

hiragate.com

الأستاذ فتح الله كولن فكره عالمي وليس فكرًا محليًّا ضيقًا. يريد أن يقدم روح الإسلام إلى هذا العالم المتعشق المتعطش للفكر الإيماني السليم المتوازن المتزن، وليس في داغستان فقط، وإنما في مختلف أنحاء العالم.

حراء

وكان ذلك يحدث لأول مرة في تاريخ تركيا. فأوصى الأستاذ باستقبال ذلك الطالب في المطار بسجادات حمراء، لأنه أعاد الثقة إلى نفوسنا من جديد بأننا نحن المسلمين نستطيع أن نحقق شيئًا في مجال العلوم، ويمكننا أن ننجز شيئًا في هذا المجال كذلك على مستوى العالم.

ج: وهذا يعني أننا منسحقون أمام الحضارة الغربية ونعتقد أنه يستحيل أن نصل إلى ما وصلوا إليه، بينما الحقيقة أنه إذا وُجد من يستخرج الكنوز الكامنة في داخل الإنسان المسلم، يستطيع أن يفعل أكثر مما يفعله الآخرون. وأنا أعلم أن تلك النجاحات، تواصلت بعد ذلك وانتقلت إلى مدارس أخرى، والآن هذه المدارس وأخواتها من المدارس المماثلة تسابق العالم كله في كل هذه المسابقات. نحن نحتاج إلى مئات من هذه المدارس وهؤلاء الطلاب، بل الآلاف.

س: الأستاذ فتح الله كولن يتعامل كذلك مع الشباب، ويستلهم الكتاب والسنة في توجيهاته، لكن رؤيته لا تولّد عنفًا كما نرى. نحن لم نر أحدًا ممن تربوا في مدرسة الأستاذ انحرف إلى العنف. فما سر ذلك؟ كيف استطاع أن يستوعب الطاقة الشبابية برأيكم؟

ج: أنا أرى أن الأستاذ يبعث فيهم الرجاء، يبعث فيهم الأمل. هناك فرق كبير بين خطاب الأستاذ وخطاب اتجاهات العنف. فالأستاذ على الرغم من أحزانه الشديدة على هذه الأمة، وعلى انتكاساتها طوال القرون الأخيرة، رغم ذلك فهو متفائل، ورغم ذلك فهو يبعث التفاؤل في نفوس الشباب. هذا التفاءل هو الذي يجعل الشباب يندفعون نحو العمل البنّاء. العمل المنتج هو الذي يمتص الأزمات الموجودة عند الشاب. أما إذا لم يجدوا من يحاول أن يوقظ قواهم الداخلية -كما يفعل الأستاذ- فإنهم حتمًا سيجدون متنفسًا لهم في أمثال هذه الحركات الهدامة العنفية التي ترى في القتل والسحق متنفسًا لهؤلاء الشباب، مع الأسف الشديد.

س: هل يمكن أن نقول بأن توجيه طاقة الشباب إلى العمل البناء هو كلمة السر؟

ج: أجل، توجيه الطاقات إلى العمل وإفراغ شحنتها في العمل والبناء والإنتاج ونفع الناس. العمل هو إكسير الحياة. إذا استطعت أن توجه شابًّا إلى أن يقوم بمهمة من المهمات أو عمل من الأعمال، فقد أبعدته عن منطقة الخطر، وهذا ما تفعله مدارس الخدمة اليوم. لذلك عندما تتابع التلاميذ الذين يدرسون في هذه المدارس، تقرأ في وجوههم البهجة والسعادة والاستبشار بالمستقبل، وهذا الشعور قلما تجده في مدارس أخرى. سمعت كثيرًا عن حالات انتحار تقع بين تلاميذ بعض المدارس الحكومية، يعني هذا منتهى اليأس، منتهى القنوط، لم يعد يجد في هذه الدنيا بارقة أمل، فلذلك يلجأ إما إلى أن يقاتل الآخرين ويقتلهم أو يقتل نفسه وهكذا.

س: إذا سمحتم أريد أن أكون مباشرًا في سؤالي، عندما نتحدث عن الأستاذ فتح الله كولن، هو تركي، فهل هذا يسبب مشكلة نفسية بالنسبة للعربي؟ يعني هل يقول العربي، وهل ينقصنا نحن العرب علماء؟ القرآن بِلُغتنا، السنّة بِلُغتنا، الدين بِلُغتنا.. فما عسى أن يضيف هذا التركي إلى علمنا ورؤانا؟ سيادتكم متفاعلون مع كتب الأستاذ فتح الله كولن وفكره وممارساته، فما الجديد عنده برأيكم؟

ج: الحقيقة أن القرآن كتاب المسلمين جميعًا، وليس كتابًا للعرب حصريًّا لكونه نزل باللغة العربية. القرآن الكريم نزل للأرض كلها، نزل للعالم كله، ولم ينزل للعرب فقط. كنوز القرآن وخفايا القرآن وعظمة القرآن، مشاعة لكل من له فكر، ولكل من يتعمق في فهم القرآن وفي دراسة القرآن. جلّ الحركات الإسلامية الموجودة في العالم العربي، تختصر على جانب محدود من العمل وتنكفئ عليه، ولا تحاول أن يكون عندها

hiragate.com

نوع من السعة، بحيث تقدر على استيعاب التوجهات العالمية والفكرية في العالم، أي تقتصر على خط معين. من خلال متابعتي وقراءتي أرى أن الأستاذ يمتلك نظرة عالمية، نظرته ليست ضيقة في حدود المنطقة أو في حدود البلد أو في حدود القُطر.

س: إذن الرؤية التي يطرحها ليست تركية أو خاصة بتركيا؟

ج: بالتأكيد، أفقه ليس محصورًا في حدود تركيا والأتراك، بدليل أن كثيرين من غير الأتراك يشيدون بهذا المنهج ويعجبون به وينخرطون فيه ويسلكون فيه. فهذا دليل على أن القضية ليست قضية إقليميات، وليست قضية أقطار أو مدن، القضيةُ عالمية. الرجل صاحب فكر عالمي، وهذا الفكر العالمي منطلقاته من القرآن الكريم.

س: بما أننا وصلنا إلى القرآن الكريم، كلنا نقرأ القرآن، ولكن لم يخرج أحد منا بمثل ما خرج به الأستاذ فتح الله كولن. من خلال متابعتكم، كيف يتعامل الأستاذ مع القرآن، كيف يقرأ القرآن، ما موقع القرآن في حياته؟

ج: القرآن هو وجدان فتح الله العميق في نفسه. عندما تقرأ في كتابه «أضواء قرآنية في سماء الوجدان» تجد فيه لمحات عجيبة عن فهمه وإدراكه للمعاني القرآنية. فالأستاذ من المتعمقين في القرآن الكريم، وفي فهم القرآن الكريم، وفي إدراك المعاني العظيمة التي تختفي وراء الآيات والسور ومجموع القرآن. هو متأثر بروح القرآن بشكل منقطع النظير. فلذلك سلوكه -إذا نظرت- سلوك قرآني، وفكره فكر قرآني. ثم هو يقول إن الرسول ﷺ الوجه الثاني من القرآن الكريم. فهو يعشق الرسول ﷺ، يعشقه عشقًا حقيقيًا. وعندما تقرأ كتابه في السيرة النبوية «النور الخالد» تقرأ كتابة عاشق لمعشوق، هو يُقبِل على السيرة النبوية بوجدانه، بروحه، بقلبه، وبفكره أيضًا.

س: كيف يتعامل مع السيرة النبوية؟

ج: عندما تقرأ كتاب «النور الخالد»، تجد أن الأستاذ لا يسرد أحداث السيرة النبوية ووقائعها سردًا تاريخيًا، وإنما يتوقف كثيرًا عند بعض الأحداث بالتحليل

فكر الأستاذ كولن يحتاج إلى شيء من الهدوء حتى يفهم، وينبغي ألا يقرأ ككتاب اعتيادي؛ لأن هذا الفكر فيه خلاصة تجربة، هو تجربة مشروع حضاري عظيم يقوم بعمل عظيم في كل مجتمع حل فيه.

والتركيز، وإدراك المرامي البعيدة الكامنة وراء هذه الأحداث، ويتعامل معها كما يتعامل العاشق مع سيرة معشوقته. هكذا، فهو يقرأ سيرة المصطفى ﷺ بكل كيانه وأعصابه ووجدانه وروحه، ولا يقرأها بشكل سطحي.

س: كأنه يبحث في السيرة النبوية عن شيء مفقود والأمة في مسيس الحاجة إليه. ما ثمرة مثل هذه القراءة؟

ج: السيرة أولاً تربية روحية. أولاً تربية، ثم هي اعتبار، وهي للاستذكار، ثم هي تاريخ في نفس الوقت. كل هذه الأمور مجتمعة في السيرة، وكلها توحي للمسلم في العصر الحديث كيفية السلوك في حياته اليومية وفي حياته الفكرية والثقافية والعلمية. كلها تكاد تكون خاصة في التعليقات الذي كان يعلق فيها الأستاذ فتح الله كولن على الأحداث والوقائع الموجودة في السيرة المطهرة.

س: عند الأستاذ إشارات مكررة وملحة إلى الصحب الكرام ﷺ كمثل أعلى، أليس كذلك؟

ج: بلى، فهو يضع أمام تلاميذه أفق الصحابة ليكونوا مثلهم، وهكذا إذا لم يتمكنوا من التحقق بمعنى كلمة الصحابة وما تعنيه، فلا أقل من أن يكونوا صدى، أن يكونوا أصداء للصحابة الكرام، أو أن يكونوا لهم مرايا. يعني ينظرون إلى الصحابة الكرام ويتأسون بهم، يتأسون بأعمالهم، يتأسون باندفاعاتهم، يتأسون بإيمانهم، يتأسون بخوفهم من الله ﷻ، بإقدامهم، بشجاعتهم، بفروسيتهم، بكل ما كان يحمل الصحابةُ الكرام من قيم سامية. وعندي لفتة طريفة تؤكد حب الأستاذ فتح الله للصحابة الكرام، وهو أنه كان يؤتى له بوليد جديد ليسميه، فكان يسميه باسم أحد الصحابة، معاذ، أنس، سعد، أسعد، مصعب، طلحة وهكذا.. وذلك في وقت غابت فيه أسماء الصحابة من المجتمع التركي تمامًا.

hiragate.com

وهذا تذكير بأسماء هؤلاء العظماء الذين بنوا هذه الحضارة العظيمة ليكونوا مثلاً أعلى للجيل الصاعد في بناء حضارة جديدة تكون روح الصحابة لبّها وخميرتها.

س: فضيلتكم اشتغلتم على بعض كتب الأستاذ وقدمتم لها. كتاب «ألوان وظلال في مرايا الوجدان» ما خلاصة رسالته بعد دراسة مستفيضة له؟

ج: في «ألوان وظلال» يرى الأستاذ في كل شيء لمحة من لمحات الجمال الإلهي، لمحة من لمحات القدرة الإلهية، لمحة من لمحات التثوير الإلهي في كل شيء. لا يوجد عند الأستاذ شيء لا يثير الاهتمام. مهما كان هذا الشيء مألوفًا، فكل شيء عنده معجِز، كل شيء عنده إعجازي. قد نرى الأشياء كثيرة، نراها ونعتقد أننا نعرفها، ولكن في الحقيقة قد نموت ونحن لم نعرف عنها شيئًا إلا الظاهر، الظاهر منها. فـ «ألوان وظلال» محاولة لتسليط الضوء على الأشياء التي تحيط بنا في هذا العالم، والنظر إليها بعين الحكمة. فهو يرى تجليات إلهية في كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، مألوفًا أو غير مألوف. كل شيء فيه إعجاز، إعجاز خَلقي. هذا هو روح هذا الكتاب.

س: "ونحن نقيم صرح الروح"، "ونحن نبني حضارتنا"، ما جوهر هذين الكتابين؟

ج: هذان الكتابان من الكتب العظيمة، "ونحن نقيم صرح الروح"، "ونحن نبني حضارتنا". نستطيع أن نستشف منهما فسلفة الأستاذ فتح الله كولن في الانبعاث الحضاري الذي يريده أن يقوم على أسس الإيمان. هذه هي الخلاصة. الانبعاث الحضاري كيف يجب أن يكون وما هي أسسه؟ وما هي معطياته؟ وكيف ينبغي أن نبنيه من جديد؟ القضية هنا ليست عملية ترقية، وليست عملية تهذيب، إنما عملية تجديد، تجديد بالفكر. وهذا عمل نادر ما تجد من يستطيع أن يقوم به، ولكن الأستاذ فتح الله بما عنده من همة ومن أمل ومن رجاء ومن تصميم وعزيمة، وبما يجد من نجاحات، -وهذا شيء هام- في المؤسسات التي حث على إقامتها، وفي الأفراد الذين تتلمذوا عليه، هذا كله يبعث فيه الأمل بأن إقامة الحضارة التي ننشدها ممكنة إذا توفرت لها الآلية الصحيحة.

س: كتاب "الموازين" يتضمن أفكارًا مركزة، كيف تصفونه؟

ج: كتاب "الموازين" روعة من الروائع، ولا يقل عن كتاب ابن عطاء الله السكندري، لا يقل أبدًا، بل أعظم منه بالنسبة لهذا العصر.

س: العالم العربي عالم كبير واسع، له مشاكله، وله رؤاه، وله قراءاته، له أنماطه في النقد والتحليل. عندما تنظرون من العالم العربي إلى مدرسة الأستاذ ومشروعه الحضاري، ما توقعاتكم؟

ج: العالم العربي الآن مشغول بمشاكله، بقضاياه. هل يستطيع أن يقيّم فكرًا مثل فكر الأستاذ، لست أدري. العالم العربي يحتاج إلى شيء من الهدوء، وإلى شيء من الاستقرار، وأن يراجع نفسه، خاصة الاتجاهات الإسلامية، عليها أن تتوقف قليلاً، وأن تراجع نفسها وتراجع فكرها، وتراجع ما قدمته وما لم تستطع أن تقدمه، بعد ذلك يمكنها أن تتفاعل مع تجربة الأستاذ، لكن في هذا الفوران الهائل الذي نجده -لا أدري- قد يكون الأمر مختلفًا. فكر الأستاذ يحتاج إلى شيء من الهدوء حتى يفهم. ينبغي ألا يقرأ ككتاب اعتيادي، لأن هذا الفكر فيه خلاصة تجربة، هو تجربة مشروع حضاري عظيم. مشروع الخدمة يقوم بعمل عظيم في كل مجتمع حل فيه. مجرد كلمة «الخدمة» هذه، دليل على أن القوم يريدون خدمة المجتمع، يريدون سعادة المجتمع الإنساني من خلال بعث الإيمان في قلبه، وإقامة الفضيلة في سلوكه. الأستاذ فتح الله كولن هو عملاق الفكر الإيماني الانبعاثي والحضاري في هذا العصر. ولا أقول هذا مدحًا أو ثناء، وإنما إدراكًا للحقيقة وأداء للأمانة. هذا ما أؤمن به وأعتقده.

(نوزاد صواش)

أشكركم على هذه اللفتات الفكرية العميقة.

(أديب الدباغ)

بل أنا أشكركم لأنكم أتحتم لي فرصة للحديث عن مدرسة فكرية عظيمة. ■

(*) المشرف العام على مجلة حراء.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

أديب الدباغ مداد مثمر

كاتب ألمعي، ومُعلم وفيّ، وأديب رقيق الوجدان، وشاعر مُثمر البيان، ومترجم فذّ بإتقان. زيّن الصفحات -وهي كثيرة- بمداد قلمه النير وأفكاره القيمة وأشعاره الباهرة، وصال وجال في بحر الدراسات الأدبية والفكرية والإسلامية. حياته عامرة بالكفاح لنشر المبادئ النبيلة والقيم الرفيعة. أحبه كل من عرفه، وقدّره متذوقو الأدب "الجميل"، وسار على دربه تلامذته، وقلّده المبتدئون على درب الكتابة، وقرض الشعر ودراسة الفكر. ولقد شارك في الندوات، وأثرى المؤتمرات، وغرس بذورًا في المنتديات، وألقى الكلمات، وقدم البحوث والدراسات. لذا لم يكن مِداد قلمه مغشوشًا، ولا كلماته مشلولة وسط "سيل عرم" من الكتابات والمقالات والآداب والأفكار والأشعار.

الأستاذ "أديب إبراهيم الدباغ" (١٩٣١-٢٠١٧م) من مواليد الموصل/العراق. حصل على الدبلوم في التربية والتعليم. ومارس التعليم ٢٩ عامًا منذ عام ١٩٥٣. وعمل أستاذًا للأدب العربي في جامعة "داغستان" الخاصة. وكان قد امتطى صهوة الكتابة منذ عام ١٩٥٠. وانشغل لفترة طويلة من حياته بكتابات ورسائل النور للأستاذ "سعيد النورسي"، ومن بعده كتابات ومؤلفات الأستاذ "فتح الله كولن". له أكثر من ١٧ كتابًا منها: "بين يدي النورسي"، و"الاغتراب الروحي لدى المسلم المعاصر"، و"المسلم المنتظر"، و"أصداء النور"، و"في آفاق النور"، و"رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان"، و"حركة التاريخ بين النسبي والمطلق"، و"البعد الحسي في الإسراء والمعراج"، و"الصور والمرايا في تراث النورسي الفكري"، و"مطارحات المعرفة الإيمانية"، و"السنة النبوية سنة كونية وحقيقة روحية"، و"فتح الله

كولن في شؤون وشجون"، و"إشراقات قلب ولمعات فكر"، و"العراق صراخ في ليل طويل"، و"الطبيعة"/ عرض وتعليق، و"النوافذ"/ عرض وتعليق، و"الاسم الأعظم"/عرض وتعليق.

ولعل أول ومضة من ومضات عالَم "النورسي" الفكري لامست وجدان "الدباغ"، تعود لعام ١٩٧٩. وإن كان قد التقى أحد طلابه في "كركوك" في خمسينيات القرن الماضي. كما يعود تعرّفه إلى فكر "النورسي" لواحد من خُلّص أصدقائه وهو الأستاذ "إحسان قاسم الصالحي"، الذي كان قد شرع منذ ذلك التاريخ -أو قبله بقليل- بترجمة نصوص منتقاة من "رسائل النور" إلى العربية، وقد بهرت الكثير من القرّاء المهتمين بالشؤون الفكرية والإيمانية.

يصف "الدباغ" الأستاذ "النورسي" بقوله: "نادرة من نوادر هذا العصر، وربما بقي كذلك لعدة عصور أخرى، لأن القضايا التي عالجها في رسائله (رسائل النور) تَمَسُّ النفس الإنسانية التي هي واحدة وستبقى واحدة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها وما عليها. وقد أعطاني "النورسي" خصبًا إيمانيًّا، وعمقًا فكريًّا، واتساعًا روحيًّا، وقدرة استيعابية شمولية لخلود الإنسان، وجمالية الأكوان، وعدمية العدميات، وبقائية الباقيات الصالحات المرتبطات بأوّليّة الله تعالى وببقائه سبحانه، فهذا الفكر المستنبط من القرآن الكريم -كما يصفه النورسي نفسه- يمكن أن يجد فيه شباب اليوم ما يخصب أفكارهم، ويترع وجدانهم، ويقوي إيمانهم".

ويبقى أن لكل زمن رجالاته، ولكل علم ثقاته، ولكل فن فحوله. وليس أقسى على عصر من أن يخلو من رجالاته، وليس أذهب للعلم من ألا ينهض به ثقاته، وليس أضيع لفن من ألا يحمله فحوله. كذلك أن يأتي رجل قبل أوانه، أو أن يسبق زمانه؛ ففي الأولى سيخبو وهجه، وتضيع بذوره، ولا أمل لثماره، وفي الثانية تراه يحدو قومه بفكره.

ولقد كان لقلم "الدباغ" ثمرات بارزة في الأدب والفكر والثقافة وتأثيرها الإصلاحي النهضوي المنشود. ولقد بذل جهده رحمه الله تعالى في تغيير ما أراده الكاتبون المُصلحون من طباع سيئة أُلفت، وأمراض اجتماعية واقتصادية وتعليمية وإعلامية انتشرت، فساد كبير عمّ، وإفساد أكبر طمّ، قلة من عمل، وكثرة من أمل، وغياب للأصل والجوهر، وسطوة للشكل والمظهر، وسلبية مقيتة، وإيجابية كسيحة. يقول:"الأمة التي تصبو أن ترتقي إلى قمّة العظمة النفسية والعبقرية الفكرية، عليها أن تراعي أشواقها الروحية، وتعمل على تعهدها وإنضاجها واتخاذها منطلقًا إلى حيث تتشعب بها الحياة ويأخذها التاريخ".

وفي كتابه "الضاربون في الأرض" يقرأ في فكر الأستاذ "فتح الله كولن"، حيث يطرق الأستاذ "كولن" من خلال فكره أبوابَ القلب، ويديم الطرْق: "افتح يا قلب، دعني ألج بكلماتي إليك، دعني أعالج أغلاق خزائنك، دعني أكشف عن أسرار مداخلك، دعني أطلق قواك الخفية وأدير مفتاح الفهم عن الله في روحك، دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين، دعني أنفض عن أهداب روحك نعاسَ السنين، دعني أشق أكفان الموت عنك، دعني أبدّد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك، دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك، دعني أعرف ذاتك بذات الكون، دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة، وصلحًا بينك وبين شقيقك الإنسان"، "والضاربون في الأرض، في فجاج الأرض تلقاهم، إن أردت لقياهم.. هم فتية إيمان، إشعاعات هدى.. على كواهلهم أثقال رسالة أشفقت من حملها جبال الأرض، وأطباق السماء.. وحملها هؤلاء الفتية أعجوبة الزمان وأبطال الأنام إلى أقاصي الأرض وأدانيها.. يمشون.. والأرض يخرقون.. ووراءهم يمشي التاريخ، ويتابع خطاهم، ويكتب آثارهم، ويترصد جلائل أعمالهم.. بواطنهم موّارة بآلام أمة، وأحزان قرون، ودموع أجيال، ومآسي أزمان.. لكنهم غير مثبطين، ولا محبطين، ولا يائسين.. الآمال من وجوههم طافحة، والبشريات على ألسنتهم منهالة، يعملون، يجدون، عرقًا يتصببون.. لكنهم لا يشتكون.. بالغربة يأنسون، وبكلمة الله التي يحملون، قلوبًا يفتحون، وأعلامًا للهدى يركزون، وراية محمد عليه الصلاة والسلام على قمم العالم يقيمون..

hiragate.com

لا ينكصون، وعن غاياتهم لا يرجعون!".

ولقد نذر "الدباغ" نفسه للأدب، عاكفًا في محراب الفكر في عصر "قصف" العقول، واحتلالها، والتلاعب بها و"تخديرها"، و"عبادتها" وتقديسها، وغسل الأدمغة، وتغريبها. ألزم نفسه بمهام ثقال، ومسؤوليات جسام، وإعمال ترجمة وتوثيق ونقد وتقديم وإنتاج ضخم لا ينهض به إلا "مؤسسات". ولِمَ لا، فالأمر جلل: نهوض لاستقلال العقول وتنويرها، وترميم لما قُصف، وتحرير لما احتل، ودفع لسهام المتلاعبين بها لتستفيق من غفوتها، فتعود لحظيرة أمتها الإسلامية.

وكان =رحمه الله= من كتاب مجلة "حراء" الدائمين. فعبر عمرها البالغ ستين عددًا (حتى الآن)، له في أرشيفها خمسون مقالاً. ولم يكن "مداده مغشوشًا"، بل كرس قلمه لعلاج العلل والأدواء ولم يرها تستعصي على العلاج. قلم فاعل في عملية النهوض والتأثير واستنهاض الهمم، ووضوح الرؤى، وتقويم النتائج، والنهوض بالتبعات والمسؤوليات. فكل الدلائل والشواهد التي يكاد يجمع عليها كل الكتاب والمفكرون والمصلحون، تؤكد على أن الإشكالية ليست "إشكالية منهج"، بل "أزمة تطبيق". فالمناهج الإصلاحية النهضوية واضحة جلية، طبقناها حقبًا فكانت لها حضارة "سطعت شمس" أنوارها على كل الدنيا من مشرقها إلى مغربها. نهلنا من غيرنا =وصهرنا في بوتقتنا وفق خصوصياتنا= وأضفنا وقدمنا (للآخر) عصارتنا على أطباق من ذهب دون قيد أو شرط أو إكراه. لكننا =والأيام دول، والحضارات كما الإنسان تمر بها فترات صحة ومرض، ضعف وقوة، طفولة ورشد= تنكبنا الطريق لأسباب أيضًا واضحة جلية يعرفها القاصي والداني، وإذا ما عرفت الأسباب سهُل تشخيص الداء ووصف العلاج.

لقد كان "مداده مثمرًا يانعًا" يشدك إليه ببهجة ألوانه وعذب مذاقاته. فسيظل للقلم، ولما يسطرون -في حضارتنا التي تقوم على العلم والمعرفة، وأن "المعرفة قوة، والقوة معرفة"- دورهما وأثرهما وتأثيرهما. سيظل المنهج جليًا، بينما الأزمة في التطبيق. وسيسهم القلم والعمل والكلمات والفكر والثقافة في "انبثاق النور"

يقول أديب الدباغ:"الأمة التي تصبو أن ترتقي إلى قمّة العظمة النفسية والعبقرية الفكرية، عليها أن تراعي أشواقها الروحية، وتعمل على تعهدها وإنضاجها واتخاذها منطلقًا إلى حيث تتشعب بها الحياة ويأخذها التاريخ".

حراء

واستنهاض الهمم والهامات، وبث الأمل والآمال، والحث على إبداع الخيارات والتطلعات التي ستجد واقعًا معيشًا. ولقد أسهم قلم "الدباغ" في هذا "التدافع" بين أصحاب الحق والباطل، بين القلم والسيف، بين الفكر والقهر، بين الحرية والاستعباد، بين الإبداع والجمود، بين الاستقلال والتبعية، بين النهوض والارتكاس، حتى وإن تعاقبت السنون والدهور إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. لقد كان صاحب حياة أدبية معطاءة ثرية، فستبقي آثاره وإنتاجه وأعماله وتركته وتلامذته ومدرسته الأدبية والفكرية والثقافية. وفي هذا عزاء لكل أحباب وزملاء وأصدقاء وتلاميذ ومحبي هؤلاء الأفذاذ من رجالات الأدب والثقافة.

وأتى قلم "الدباغ" ضمن قافلة تترى وتتوالى لها المكان والمكانة. مشعل نور، وحامل لواء، لم يكذب نفسه ولا أهله، له مدرسته وفكره. فأعد النظر مرة ومرة.. في إنتاجه على تنوعه تجد ركائز ثرية واضحة ومميزة دالة على مشروعه الفكري: قضية الشعر واللغة، إبراز كتابات الأفذاذ من قدوات الإصلاح، ومراعاة سلم الأولويات، وعالمية الإسلام، ومستقبل الإنسانية، والثقة بنهوض الأمة. ولقد غيب الموت صباح الأربعاء (٣١ مايو ٢٠١٧) أديبًا هذا شأنه وتلك تركته. لقد ترجل "الفارس" عن فرسه، ووضع قلمه، لم يغلق محبرته. ولقد نعاه الكثيرون. ويبقي التوجه بالدعاء لله العلي القدير أن يغفر لفقيدنا ويرحمه، ويلهم أهله ومحبيه وتلاميذه الصبر والسلوان. فلقد كان نعم الفارس والأب والمعلم والرمز من رموز علو الهمة والتواضع، عاش كريمًا، ومات فقيدًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
أحمد شحاتة
ياووز يالمز

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

رسالة واضحة للنخب حول الحدث التركي وتداعياته..

بيان للحقيقة وشهادة للتاريخ..

كتاب جديد

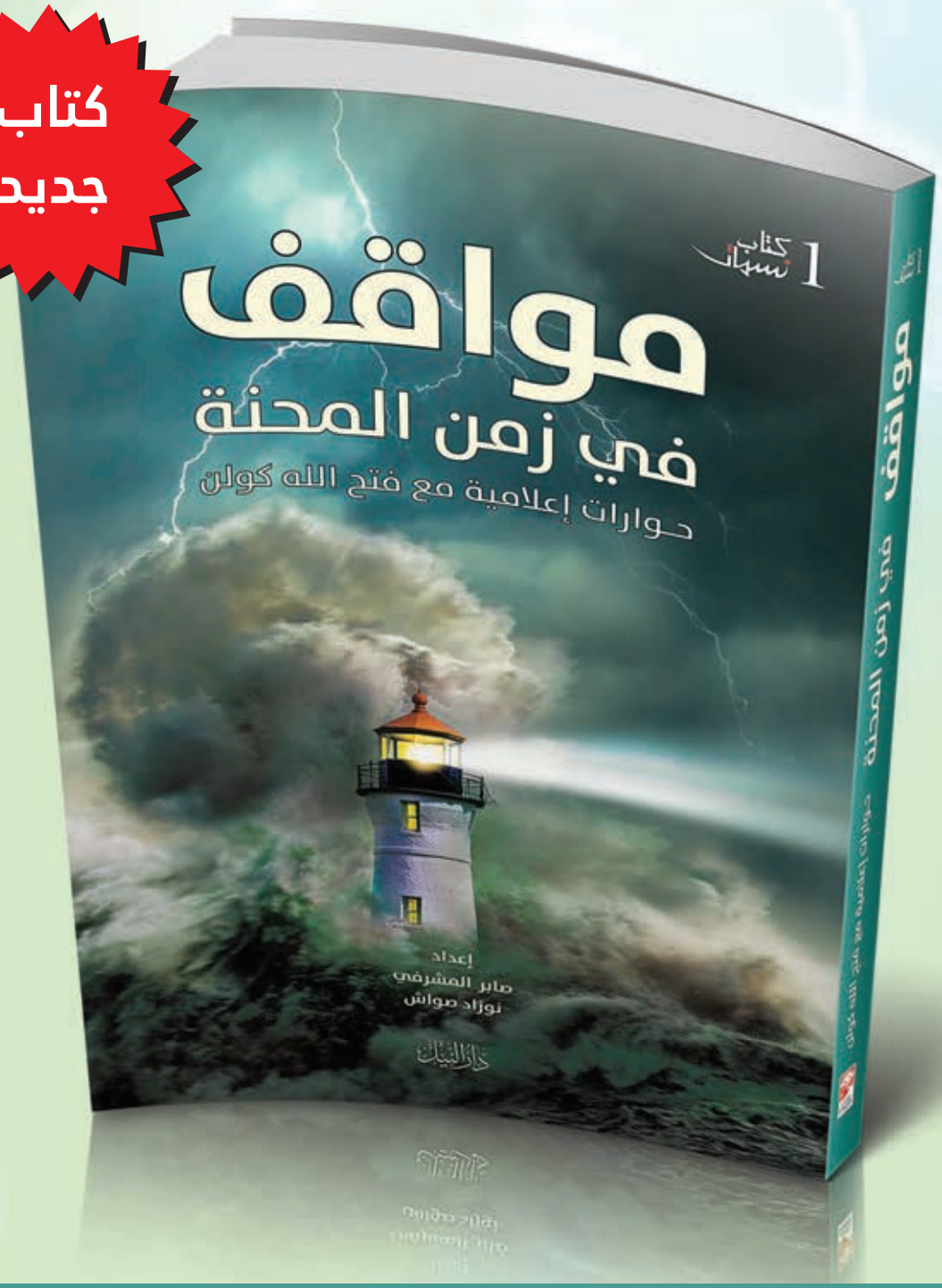

مركز التوزيع: دار النيل للنشر | sales.daralnile@gmail.com
مركز البيع الإلكتروني: www.neelwafurat.com | www.souq.com
Tel.: +202 25379391 - Mobile: +2 01023201002 +2 01023201001
www.daralnile.com
دار النيل

بهجة الروح

خبئ بهجة الروح إلى زمن الربيع،
وامسح الحزن الذي أتاك من الخريف،
وارتقب من لدنه عناية،
ارتقبها وانتظر قدومها عمّا قريب.

* * *

ISSN 2357-0229
61
9 772357 022004
www.hiragate.com